الصبر في القرآن الكريم

إعداد

دكتور/ محمد محمد محمد قاسم

الأستاذ المساعد

بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين ـــ جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(الحمد لله الذيُ أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.قيما لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا) الكهف: ١ ــ ٢ ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، الرحمة المهداة ، متمم مكارم الأخلاق، والهادي إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وبعد

فلقد أرشد الإسلام إلى التحلي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

والصبر هو الدواء الشافي لنفس المصاب يخفف حزنها وآلامها، لأن الجزع لا يزيد المبتلى إلا ثقلا على النفس وهما في القلب، لذا كان الصبر خير وسيلة للتخفيف من وقع المصيبة، وما على المسلم المصاب إلا أن يفوض أمره لله تعالى، ويسأله أن يعوضه خيرا منها، وإذا كان الصبر قوام الحياة فإنه ألزم ما يكون في ساعة المحن والبلاء ليخفف من وقع المصيبة فتنقلب المحنة إلى منحة والبلية إلى عطية، يقول ابن القيم في (الوابل الصيب) ص ٢ ما يلي "وإن الله سبحانه وتعالى لم يبتليه ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته".

والمواطن التي تستدعي الصبر هي كل حالات الإنسان على تضادها وتباينها فهو لا غنى عنه بحال من الأحوال ، لأن تلك الأحوال منحصرة في نوعين:

نوع يوافق الهوى كالصحة والجاه والسلامة والمال وكثرة العشيرة والأتباع، وما إلى ذلك من مفاتن الحياة الدنيا، ونوع لا يوافق الهوى والطبع.

والنوع الأول : الموافق للهوى يستدعي صبرا عظيما، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فلا يركن إليها، ولا يفتتن بها، ليأمن الطغيان والبطر ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى {٦} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى {٧}﴾ العلق : ٦ ــ ٧.

وأما النوع الذي لا يوافق الهوى والطبع فهو :

إما أمر بطاعة يصبر عليها، وإما نهي عن معاصي يصبر على تركها والبعد عنها، وهذا النوع داخل تحت الإرادة الإنسانية، والصبر في هذه المواطن شديد، لأن النفس بطبعها تنفر من الخضوع والعبودية وترغب في التحرر والاسترسال

في دواعي الشهوات، غير أن الإرادة إذا خلصت وأخلصت لله تعالى تغلبت وانتصرت في هذا الموطن. وإذا كان الصبر هو أصل هذه الحياة من مبدئها فكذلك هو سر نجاح الأفراد في واجباتهم ووصولهم إلى آمالهم وغاية كمالهم، من أجل هذا أمر الله به أنبياءه عليهم السلام، وأمر نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإقتداء بهم ليهون عليه ما كان يجده من عناد قومه، وما أجمل قوله عز وجل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ {٣٥}﴾الأحقاف: ٣٥.

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو (الصبر في القرآن الكريم) ومحاولة فهم معاني الآيات في ضوء التفسير الموضوعي لها.

ومنهجي في هذا البحث هو جمع النصوص القرآنية التي تتصل بنقاط البحث، ثم جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي لها صلة بهذه الآيات باعتبار السنة شارحة للقرآن، ومفصلة لمجمله، ومبينة لمبهمه.

ثم أرجع إلى كتب التفسير أقرأ فيها تفسير هذه الآيات القرآنية الكريمة، وأهتم بقراءة متنوعة لكتب التفسير في كل آية ، من تفسير بالمعقول إلى تفسير بالمنقول وغير ذلك.

كما أرجع إلى كتب الحديث وخاصة كتابي (فتح الباري) شرح صحيح البخاري و (صحيح مسلم بشرح النووي لقراءة شرح الأحاديث النبوية الشريفة، بالإضافة إلى ما ورد من الآثار الكثيرة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في كتب التاريخ والسير.

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يتقبله منا بفضله آمين ، إنه سبحانه نعم المجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

د/ محمد محمد محمد قاسم

الأستاذ المساعد

بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر

تعريف الصبر لغة واصطلاحاً :.

الصبر لغة : حبس النفس عن الجزع، وفي حديث النبي عليه الصلاة والسلام في رجل أمْسَكَ رجلا وقتله آخر، قال : [اقتلوا القاتل واصبروا الصابر] [1] أي احبسوا الذي حَبَسَه للموت حتى يموت كفعله به ، والتصبّر تكلف الصبر، وتقول اصْطَبَر واصْبَر [2].

وقال ابن الجوزي : " الصبر في اللغة: حبس النفس عما تنازع إليه" [3].

وقال الفيروزابادي : " الصبر في اللغة : الحبس والكف في ضيق، ومنه قيل : فلانٌ صُبر : إذا أُمسك وحُبس للقتل، قال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[4] أي احبس نفسك معهم "[5].

واصطلاحاً : عرفه ابن مسكويه بقوله " الصبر هو مقاومة النفس الهوى، لئلا تنقاد لقبائح اللذات " [6].

والغزالي ـ رحمه الله ـ يعرف الصبر بأنه " ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات " [7].

وقال الفيروزابادي : " الصبر حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش" [8].

وقيل : هو تلقي المصائب والنكبات بجلد ومتانة أعصاب.

وقيل : هو تحمل النفس لمكاره الحياة وعدم الجزع لنوائب الدهر.

وبالصبر يتمكن الإنسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ

١ـ أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، مادة صبر ٢٥٤/١ ، و أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ـ كتاب الجنايات ـ باب الرجل يحبس الرجل لآخر فيقتله ٥١/٨ ، أخبرنا أبو عبد الرحمن السّلَمي أنبأ أبو الحسن الكارزي ثنا علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال : سمعت عبد الله ابن المبارك يحدثه عن معمر عن إسماعيل بن أميةَ يرفعه ، قال أبو عبيد قوله (اصبروا) الصابر : يعني احبسوا الذي حبسه ، وأورده علاء الدين الهندي في كنز العمال ١٠/١٥ـــ ١١ رقم ٣٩٨٣٩ ونسبه إلى أبي عبيد في الغريب والبيهقي. وإسناده صحيح إلى إسماعيل بن أمية ، لكنه مرسل، لأن إسماعيل بن أميةَ لم يدرك أحد من الصحابة ، بل روى عن سعيد بن المسيب .

(٢) مختار الصحاح ص ٣١١ باب الصاد، وانظر لسان العرب ٢٣٩١/٤ مادة صبر.

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ص ٣٨٧ .

(٤) سورة الكهف : آية ٢٨.

(٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣٧١/٣.

(٦) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ـ الفضائل التي تحت العفة ص ٢٨.

(٧) إحياء علوم الدين ٩/٤.

(٨) بصائر ذوي التمييز ٣٧١/٣.

ما يريد من تصرف في الزمن المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة وعلى الوجه المناسب الحكيم ، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غيرَ مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطئ في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ، وربما يكون صاحب حقّ أو يريد الخير، فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسَلِم من كل ذلك.

مجالات الصبر:

للصبر مجالات كثيرة في حياة الإنسان، منها المجالات التالية:

(أ) فمن الصبر ضبط النفس عن الضجر والجزع عند حلول المصائب ومسّ المكاره.

(ب) ومن الصبر ضبط النفس عن السأم والملل ، لدى القيام بأعمال تتطلب الدأب والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المستعجل مدة طويلة.

(ج) ومن الصبر ضبط النفس عن العجلة والرعونة لدى تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

(د) ومن الصبر ضبط النفس عن الغضب والطيش ، لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس.

(هـ) ومن الصبر ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها ، حتى لا يندفع الإنسان وراء الطمع في أمر يقبح الطمع فيه.

(و) ومن الصبر ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها، كلما كان هذا الاندفاع أمراً لا خير فيه.

(ز) ومن الصبر ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلما كان في هذا التحمل خيرٌ عاجلٌ أو آجل.

فضل الصبر:

وفضل الصبر آتٍ من أنه تعبير عن قوة الإرادة ، وعن كمال العقل، والبعد عن الطيش والرعونة، وتعبير عن الحكمة في معالجة مشكلات الحياة.

يضاف إلى ذلك أنه في مستواه الرفيع ثمرة من ثمرات الفهم عن الله، وتدبر حكمته العظيمة في تصريف الأمور، وامتحان عباده في هذه الحياة، وثمرة من ثمرات الرضى عن الله فيما تجري به مقاديره، ولذلك كان الصبر ضياء، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم [1] عن أبي مالك

---

(1) صحيح مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء ١/١٧٢ رقم ٢٢٣.

الحارث بن عاصم الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها] .

ويضاف إلى ذلك أيضا أنه السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خصمه أو الظفر به، وأنه أعظم خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا، ولذلك قال الله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ {١٤٢} ﴾ [1] .

استفهام على سبيل الإنكار، أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة وأنتم لم تجاهدوا في سبيل الله ، ولم تصبروا في القتال ؟ لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا وتختبروا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

قال أبو جعفر الطبري : " المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدين منكم في سبيل الله والصابرين عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه " [2] .

وقال أبو مسلم في (أم حسبتم ...) إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت ، وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد، وهو كقوله ﴿ الم {١} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {٢} ﴾ [3] .

وافتتح الكلام بذكر (أم) التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين، يشك في أحدهما لا بعينه، يقولون : أزيدا ضربت أم عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما. قال: وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيدا، فلما قال (ولا تهنوا ولا تحزنوا) [4] كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر، وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها، وبين وجوه المصالح فيها في الدين وفي الدنيا، فلما كان كذلك، فمن البعيد أن يصل الإنسان

---

(1) سورة آل عمران : آية ١٤٢.

(2) جامع البيان ٣/٤/٧٠ ـ ٧١.

(3) سورة العنكبوت : آية ١ ـ ٢.

(4) سورة آل عمران : آية ١٣٩.

إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة[1] .

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عنى بها الكتاب العزيز، وقد كرر القرآن الكريم ذكره أكثر من غيره من الأخلاق الإسلامية.

وقد مدحه القرآن الكريم ورفع منزلته .

يقول الإمام الغزالي " ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا " [2] .

وينقل ابن القيم في (مدارج السالكين) عن الإمام أحمد قوله " الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعا " [3] .

وقال الفيروزابادي : " وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم على ستة عشر نوعا :

الأول : الأمر به ، نحو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[4] ، وقوله تعالى ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[5] ،وقوله تعالى﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[6]،﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[7].

الثاني :النهي عن ضده ، كقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[8] ، وقوله فلا﴿ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾[9] فإن تولية الأدبار ترك الصبر والمصابرة .

الثالث الثناء على أهله، كقوله ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ{١٧}﴾[10] وقوله ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ{١٧٧}﴾[11] .

الرابع : إيجاب معيته لهم المعية التي تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، وليست معية عامة، أعني معية العلم والإحاطة، كقوله ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[12]

---

(1) نقلا عن محاسن التأويل ٩٨٤/٤ .
(2) إحياء علوم الدين ٦٣/٤ .
(3) مدارج السالكين ١٥٨/٢ .
(4) سورة البقرة : آية ١٥٣ .
(5) سورة آل عمران : آية ٢٠٠ .
(6) سورة الأنفال : آية ٤٦ .
(7) سورة النحل : آية ١٢٧ .
(8) سورة الأحقاف : آية ٣٥ .
(9) سورة الأنفال : آية ١٥ .
(10) سورة آل عمران : آية ١٧ .
(11) سورة البقرة : آية ١٧٧ .
(12) سورة الأنفال : آية ٤٦ .

الخامس: إيجاب محبته لهم ، كقوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[1] .

السادس:إخباره بأن الصبر خير لهم، كقوله ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ{١٢٦}﴾[2] ، وقوله ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3] .

السابع: إيجابه الجزاء لهم بأحسن ما كانوا يعملون ، مثل قوله تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٦}﴾[4] .

الثامن: إيجابه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ{١٠}﴾[5].

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله (وبشر الصابرين) [6] .

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ{١٢٥}﴾[7] .

الحادي عشر: الإخبار عن أهل الصبر أنهم من أهل العزائم، كقوله تعالى ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{٤٣}﴾[8] .

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر ، كقوله ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[9] ، وقوله ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{٣٤} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{٣٥}﴾[10] .

الثالث عشر: الإخبار بأنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{٥}﴾[11] ، وقوله في أهل سبأ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{١٩}﴾[12] .

---

(1) سورة آل عمران : آية ١٤٦ .
(2) سورة النحل : آية ١٢٦ .
(3) سورة النساء : آية ٢٥ .
(4) سورة النحل : آية ٩٦ .
(5) سورة الزمر : آية ١٠ .
(6) سورة البقرة : آية ١٥٥
(7) سورة آل عمران : آية ١٢٥ .
(8) سورة الشورى : آية ٤٣ .
(9) سورة القصص : آية ٨٠ .
(10) سورة فصلت : آية ٣٤ ـ ٣٥ .
(11) سورة إبراهيم : آية ٥ .
(12) سورة سبأ : آية ١٩ .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ {٢٣} سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ {٢٤}﴾ (١) .

الخامس عشر : يورث الصبر صاحبه قوة في الدين، كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ {٢٤}﴾ (٢) .

السادس عشر : قرنه تعالى بالتقوى والشكر، كقوله تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (٣) ، وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٤)(٥) .

***

الصبر عند المصائب

لقد أرشد الإسلام إلى التحلي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب.

ووجه الإسلام المؤمنين إلى الرضى بقضاء الله وقدره، في كل ما ينجزه القضاء والقدر من أمره، وأن ما يأتي به القضاء والقدر مما لا كسب للإنسان فيه ولا مسئولية عليه به هو خير في حقيقة أمره، وإن كان ظاهره مكروها وموجعا، وإن كان في عرف الناس مصيبة من المصائب، وأبان للمؤمنين أنه ما يصيبهم من حسنة فمن فضل الله وواسع رحمته وجوده، وما يصيبهم من سيئة فبسبب من أنفسهم.

ووعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

وفيما يلي شرح لطائفة من النصوص القرآنية في ذلك :

١ — يقول الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ {١٥٦} أُولَٰئِكَ

(١) سورة الرعد : آية ٢٣ — ٢٤.
(٢) سورة السجدة : آية ٢٤.
(٣) سورة آل عمران : آية ١٢٠.
(٤) سورة إبراهيم : آية ٥.
(٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣/٣٧١ — ٣٧٥.

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ {١٥٧}﴾ (١) .

أبان سبحانه في هذه الآيات أن النعمة قد تقترن بالبلاء وألوان المصائب، ولكن لا دواء لتحمل المصيبة إلا بالاستعانة بالصبر، إذ في الصبر تقوية الإرادة وتحمل المشقة والثبات على المصاعب.

وإذا استعان المؤمن بالصبر، هانت عليه المصاعب، وتحمل كل شدة ومشقة، وقاوم كل عناء وكرب.

فدل هذا النص على أن المصائب المؤلمة، في الأنفس، أو في الأجسام، أو في الأموال، أو في الثمرات قد تكون نوعًا من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، لقول الله تعالى (ولنبلونكم) .

والمعنى : لنمتحننكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء، وقيل : إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق، وقيل : أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنه يصيبهم ، فيوطّنوا أنفسهم عليه فيكونوا أبعد لهم من الجزع، وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس (٢) .

(بشيء) لفظ مفرد ومعناه الجمع.

قال الزجاج : " ولم يقل بأشياء ، فإنما جاء على الاختصار، والمعنى يدل على أنه وشيء من الخوف وشيء من الجوع وشيء من نقص الأموال والأنفس، وإنما جعل الله هذا الابتلاء لأنه أدعى لمن جاء بعد الصحابة ومن كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أتباعهم لأنهم يعلمون أنه لا يصبر على هذه الأشياء إلا من قد وضح له الحق وبان له البرهان، والله عز وجل يعطيهم ما ينالهم من المصائب في العاجل والآجل، وما هو أهم نفعا لهم فجمع بهذا الدلالة على البصيرة وجوز الثواب للصابرين على ذلك الابتلاء " (٣) .

وقال الرازي : " إنما قال سبحانه (بشيء) على الوحدان، ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين : الأول : لئلا يوهم بأشياء من كل واحد فيدل على ضروب الخوف، والتقدير بشيء من كذا وشيء من كذا ، الثاني : معناه بشيء قليل من هذه الأشياء " (٤) .

وقال ابن عطية : " المراد بشيء من هذا وشيء من هذا فاكتفى بالأول إيجازا ولذلك وحد " (٥) .

(١) سورة البقرة : آية ١٥٥ — ١٥٧.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٣٢/٢/١.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٢٣٠/١ — ٢٣١.
(٤) مفاتيح الغيب ٥٤٣/٤/٢.
(٥) المحرر الوجيز ٢٢٨/١.

(من الخوف) أي خوف العدو والفزع في القتال، قاله ابن عباس ، وقال الشافعي : هو خوف الله عز وجل.

(والجوع) يعني المجاعة بالجدب والقحط ، في قول ابن عباس ، وقال الشافعي : هو الجوع في شهر رمضان.

(ونقص من الأموال) بسبب الاشتغال بقتال الكفار، وقيل : بالجوائح المتلفة، وقال الشافعي:بالزكاة المفروضة .

(والأنفس) قال ابن عباس : بالقتل والموت في الجهاد، وقال الشافعي : يعني بالأمراض .

(والثمرات) قال الشافعي : المراد موت الأولاد، وقال ابن عباس: المراد قلة النبات وانقطاع البركات [1] .

وينقل الرازي في (مفاتيح الغيب) عن القفال رحمه الله قوله " أما الخوف الشديد فقد حصل لهم عند مكاشفتهم العرب بسبب الدين، فكانوا لا يأمنون قصدهم إياهم واجتماعهم عليهم، وقد كان من الخوف في وقعة الأحزاب ما كان، قال الله تعالى ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾{١١} [2] .

وأما الجوع فقد أصابهم في أول مهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لقلة أموالهم، حتى إنه صلى الله عليه وسلم كان يشد الحجر على بطنه، وأما النقص في الأموال والأنفس فقد يحصل ذلك عند محاربة العدو بأن ينفق الإنسان ماله في الاستعداد للجهاد وقد يُقتلُ، فهناك يحصل النقص في المال والنفس، وقال الله تعالى ﴿وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [3] ، وقد يحصل الجوع في سفر الجهاد عند فناء الزاد، قال الله تعالى ﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ [4] ، وقد يكون النقص في النفس بموت بعض الإخوان والأقارب على ما هو التأويل في قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) [5] ، وأما نقص الثمرات فقد يكون بالجدب وقد يكون بترك عمارة الضياع للاشتغال بجهاد الأعداء، وقد يكون ذلك بالإنفاق على من كان يرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوفود" [6] .

ثم بين تعالى ما للصابرين عنده بقوله (وبشر الصابرين) والخطاب في (وبشر)

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٣٢/٢/١.

(٢) سورة الأحزاب : آية ١١.

(٣) سورة التوبة : آية ٤١.

(٤) سورة التوبة : آية ١٢٠.

(٥) سورة النساء : آية ٢٩.

(٦) مفاتيح الغيب : ٥٤٤/٤/٢.

لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يتأتى منه البشارة .

أي بشر الصابرين بالثواب على المصائب والبلايا بجنات النعيم .

والصابرون بحق : هم المهتدون إلى الحق والصواب ونافع الأعمال، وهم الذين فازوا بخيري الدنيا والآخرة، والصبر يكون عند الصدمة الأولى لحديث البخاري عن أنس [إنما الصبر عند الصدمة الأولى] [1] .

قال ابن حجر : " والمعنى إذا وقع الثبات أول شئ يهجم على القلب من مقتضيات الجزع فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشئ الصلب بمثله فاستعير للمصيبة الواردة على القلب،قال الخطابي: المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو، وحكى الخطابي عن غيره أن المرء لا يؤجر على المصيبة لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره، وقال ابن بطال : أراد أن لا يجتمع عليها مصيبة الهلاك وفقد الأجر، وقال الطيبي : صدر هذا الجواب منه صلى الله عليه وسلم عن قولها لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها : دعي الاعتذار فإني لا أغضب لغير الله وانظري لنفسك" [2] .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : " معناه الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقة فيه ، وأصل الصدم الضرب في شئ صلب، ثم استعمل مجازا، وفي كل مكروه حصل بغتة " [3] .

والبكاء أو الحزن مع الرضا والتسليم للقضاء والقدر لا ينافي الصبر والإيمان، فقد جاء في الصحيحين [4]

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بتمامه عن أنس رضى الله عنه قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال [اتقي الله واصبري قالت: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفْه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت : لم أعرفك ، فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى] صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب زيارة القبور ٣٨٢/١ رقم ١٢٨٣ ، صحيح مسلم ـ كتاب الجنائز ـ باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٥٣١/٢ رقم ٩٢٦.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب : زيارة القبور ١٧٩/٣رقم ١٢٨٣.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الجنائز ـ الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٢٢٧/٦/٢.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم [إنا بك لمحزون] ٣٨٨/١رقم ١٣٣٠ عن أنس رضى الله عنه ، صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب رحمته

أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى حينما مات ولده إبراهيم ، فقيل له : أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ قال : [إنها الرحمة ، ثم قال : إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون].

ثم بين تعالى تعريف الصابرين بقوله (الذين إذا أصابتهم مصيبة). والمصيبة : كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، يقال : أصابه إصابة ومصابة ومصاباً، والمصيبة واحدة المصائب .

وقيل : المصيبة : النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، وتستعمل في الشر. والمعنى : أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في العزاء عن عكرمة قال : " طفئ سراج النبي صلى الله عليه وسلم فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقيل : يا رسول الله أمصيبة هي ؟ قال : نعم، وكل ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة له وأجر " [1] .

وهذا ثابت معناه في الصحيح، فقد أخرج الإمام مسلم [2] — بسنده — عن أبي سعيد وأبي هريرة — رضى الله عنهما — أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [ما يُصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حَزن، حتى الهَم يُهمُّه ، إلا كفّر به من سيئاته].

(قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله (إنا لله) توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله (وإنا إليه راجعون) إقرار بالهَلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

أخرج ابن جرير الطبري [3] — بسنده — عن سعيد بن جبير قال : ما أعطى أحد ما أعطيت هذه الأمة (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب عليه السلام ، ألم تسمع إلى قوله (يا أسفى على يوسف) [4] .

(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون). هذه نعم من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين، وصلاة الله على عبده :

صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ١٤٤٢/٤ رقم ٢٣١٥ عن أنس رضى الله عنه.

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٨٠/١.

(2) صحيح مسلم — كتاب البر والصلة والآداب — باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ١٥٨٢/٤ رقم ٢٥٧٣.

(3) جامع البيان ٢٦/٢، الدر المنثور ٣٧٧/١.

(4) سورة يوسف : آية ٨٤.

عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة .

قال الزجاج : " الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن " [1] .

وقال الراغب : " الصلاة ، وإن كانت في الأصل الدعاء، فهي من الله البركة على وجه والمغفرة على وجه " [2] .

وقال الرازي : " الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم " [3] .

وقال الراغب : " وإنما قال (صلوات) على الجمع، تنبيها على كثرتها منه وأنها حاصلة في الدنيا توفيقا وإرشاداً ، وفي الآخرة ثواباً ومغفرة " [4] .

(ورحمة) عظيمة في الدنيا عوض مصيبتهم .

(وأولئك هم المهتدون) أي هم المهتدون إلى طريق السعادة.

أرشد هذا النص إلى التحلي بفضيلة الصبر في مجال الإصابة بالمصائب المختلفة، والتي منها مصائب الخوف ، ومصائب الجوع، ومصائب النقص من الأموال، ومصائب النقص من الأنفس، ومصائب النقص من الثمرات.

وأبان النص أن من آداب الصابرين على المصائب التي تأتيهم من عند الله لابتلائهم ، وامتحان إيمانهم، واختبار تسليمهم ورضاهم بما يجري به قضاء الله وقدره ، أن يقولوا : إنا لله وإنا إليه راجعون، معلنين بهذا أن كل شئ هو مملوك لله، وأنه إلى الله يرجع.

واشتمل النص على البشارة من الله للصابرين ، إذ يقول تبارك وتعالى فيه (وبشر الصابرين) وهذه البشارة قد جاءت بأمرين محبوبين عظيمين :

الأمر الأول : أن عليهم صلوات من ربهم.

الأمر الثاني : أن عليهم من ربهم رحمة.

وقد استحقوا البشارة بهذا الجزاء الكريم لأنهم هم المهتدون إلى سبيل سعادتهم ، وهم السالكون في الطريق القويم.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصائب ، وفي أجر الصابرين ، أحاديث كثيرة ، منها :

١ـ ما أخرجه الإمام مسلم [5] — بسنده — عن أم سلمة قالت : سمعت

(1) معاني القرآن ٢٣١/١.

(2) المفردات في غريب القرآن ص ٢٨٥.

(3) مفاتيح الغيب ٥٥٠/٤/٢.

(4) المفردات ص ٢٨٥.

(5) صحيح مسلم — كتاب الجنائز — باب ما يقال عند المصيبة ٥٢٨/٢ رقم ٩١٨.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أْجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرا منها] .

٢ــ وما أخرجه الإمام أحمد [١] ــ بسنده ــ عن الحسين بن عليّ عليهما السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها، وإن طال عهدها، فيحدث لذلك استرجاعاً ، إلا جدّد الله له عند ذلك ، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها] .

٣ــ وما أخرجه الترمذي [٢] ــ بسنده ــ عن حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : دفنتُ ابني سِناناً وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدي فقال ألا أبشرك يا أبا سنان ؟ قلت بلى قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عَرْزب عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون : نعم. فيقول : ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع ، فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد] .

٤ــ وما أخرجه البخاري [٣] ــ بسنده ــ عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه] .

٥ــ وما أخرجه أيضا [٤] ــ بسنده ــ عن عبد الله بن مسعود قال : [دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك [٥] ، فقلت : يا رسول الله ، إنك لتوعك وعكا شديدا ؟ قال : أجل،

(١) مسند أحمد ٢٠١/١.

(٢) سنن الترمذي ــ كتاب الجنائز ــ باب فضل المصيبة إذا احتسب ٢٤٣/٢ رقم ١٠٢٦ ، مسند أحمد ٤١٥/٤.

(٣) صحيح البخاري ــ كتاب المرضى ــ باب ما جاء في كفارة المرض ١٨٠٧/٤ رقم ٥٦٤٠، صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة والآداب ــ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ١٥٨٢/٤ رقم ٢٥٧٣.

(٤) صحيح البخاري ــ كتاب المرضى ــ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ١٨٠٨/٤ رقم ٥٦٤٨ ، صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة والآداب ــ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ١٥٨٠/٤ رقم ٢٥٧١.

(٥) الوَعْكُ : مغثُ المرض، وقيل : أذى الحُمَّى ووجَعُها في البدن لسان العرب ٤٨٧٥/٦.

إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال : أجل، ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذىً، شوكةٌ فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها] .

والأحاديث في ذلك متوافرة معروفة في كتب السنة .

٢ــ ويقول الله تعالى : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ {٣٤} الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {٣٥} ﴾ [١] .

ففي قول الله تعالى في وصف المخبتين (والصابرين على ما أصابهم) إشادة بفضيلة خُلق الصبر على المصائب.

وأصل الخَبْت في اللغة : ما اطمأن من الأرض واتسع [٢] .

والمخبتُ لربه هو المتواضع الخاشع المطمئن، وكأن هذه المعاني التي وردت في وصف المخبتين مأخوذة من الإخبات المادّي ، وهو اللجوء إلى الأرض المنخفضة المطمئنة ، على سبيل التواضع والسكينة، ثم حمل لفظ الإخبات معنى التواضع والخشوع والطمأنينة ، أو تكون هذه المعاني من لوازم المعنى اللغوي لهذه اللفظة، فمن كان مخبتا لربه : أي : متواضعا خاشعا مطمئنا، كان من صفاته أنه إذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا ابتلاه الله بمصيبة صبر على ما ابتلاه به، ومن كان مخبتا لربه كان لابد أن يكون مقيما للصلاة المفروضة مؤديا للزكاة ، قائما بحق الله عليه.

قال الرازي : " والمخبت المتواضع الخاشع ، قال أبو مسلم : حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض، يقال أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال أنجد وأشام ، والخبت هو المطمئن من الأرض.

وللمفسرين فيه عبارات :.

إحداها : المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة .

ثانيتها : المجتهدين في العبادة عن الكلبي.

ثالثتها : المخلصين عن مقاتل.

رابعتها : المطمئنين إلى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد.

خامستها : هم الذين لا يظلمون وإذا ظُلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس.

ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم

(١) سورة الحج : آية ٣٤ ــ ٣٥.

(٢) لسان العرب ١٠٨٧/٢.

فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله.

ثم لذلك الوجل أثران:

أحدهما: الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله تعالى (والصابرين على ما أصابهم) وعلى ما يكون من قبل الله تعالى، لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب، فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب، بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقابلة.

والثاني: الاشتغال بالخدمة وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله، أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة، وهو المراد بقوله تعالى (والمقيمي الصلاة)، وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) "(١).

وقال **الطاهر بن عاشور**: " والمخبت: المتواضع الذي لا تكبُّر عنده، وأصل المخبت مَن سلك الخَبْت، وهو المكان المنخفض ضد المصْعد، ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبر من سمات

(١) مفاتيح الغيب ١١/٢١/٢٧٥ — ٢٧٦، وانظر الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢/٤٥ — ٤٦، تفسير القرآن العظيم ٣/٢٢١.

المشركين، قال تعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (٢)، وقد أتبع صفة (المخبتين) بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق، وكل هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع فليس المقصود مَنْ جمع تلك الصفات، لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه وإنما المقصود من لم يُخِل بواحدة منها عند إمكانها .... والمراد بالصبر: الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام، وأما الصبر في الحروب وعلى فقد الأحبة فمما تشترك فيه النفوس الجلدة من المتكبرين والمخبتين، وفي كثير من ذلك الصبر فضيلة إسلامية إذا كان تخلقا بأدب الإسلام " (٣)

وهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٤).

وقوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٥)

(٢) سورة غافر: آية ٣٥.
(٣) التحرير والتنوير ٨/١٧/٢٦٠ — ٢٦١.
(٤) سورة الأنفال: آية ٢.
(٥) سورة الزمر: آية ٢٣.

وللإمام **عز الدين محمد بن عبد السلام** — رحمه الله تعالى — كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا.

قال عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

إحداها: معرفة عز الربوبية وقهرها.

الثانية: معرفة ذلة العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ {١٥٦} ﴾ (١)، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه.

الثالثة: الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ {١٧} ﴾ (٢).

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ﴾ (٣).

(١) سورة البقرة: آية ١٥٦
(٢) سورة الأنعام: آية ١٧.
(٣) سورة الزمر: آية ٨.

الخامسة: التضرع والدعاء ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا ﴾ (٤).

السادسة: الحلم ممن صدرت عنه المصيبة ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٥) ﴿ إنا نبشرك بغلام حليم ﴾ (٦) [إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة] (٧)، وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة: العفو عن جانيها (والعافين عن الناس) (٨)، ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {٤٠} ﴾ (٩) والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير

(٤) سورة يونس: آية ١٢.
(٥) سورة التوبة: آية ١١٤.
(٦) سورة الحجر: آية ٥٣.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه — كتاب الإيمان — باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين ١/٥٤/ رقم ١٧، الجامع الصغير ١/٩٣.
(٨) سورة آل عمران: آية ١٣٤.
(٩) سورة الشورى: آية ٤٠.

حساب﴾(1)، [وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر] (2) .

التاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها. قال عليه الصلاة والسلام : [والذي نفسي بيده، إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء](3)

في الزوائد: إسناده صحيح . رجاله ثقات .

العاشرة : تمحيصها للذنوب والخطايا ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ{30} ﴾(4) ، [ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه والشوكة يشاكها إلا كفر بها من سيئاته](5) .

الحادية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، [فالناس معافي ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية] (6) .

الثانية عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الثالثة عشرة : ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الرابعة عشرة : ما في طيها من الفوائد الخفية ﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً{19} ﴾ (7) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (8) .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم (9) كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر،

---

(1) سورة الزمر : آية ١٠.

(2) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب الاستعفاف عن المسألة ٤٣٩/١ رقم ١٤٦٩.

(3) أخرجه ابن ماجه – كتاب الفتن – باب الصبر على البلاء ١٣٣٤/٢ رقم ٤٠٢٤.

(4) سورة الشورى : آية ٣٠.

(5) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ١٥٨٢/٤ رقم ٢٥٧٣.

(6) الموطأ – كتاب الكلام – باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ٣٢٨/٢/١ رقم ٨.

(7) سورة النساء : آية ١٩.

(8) سورة النور : آية ١١.

(9) أخرجه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) ١٠٣٤/٢ – ١٠٣٥ رقم ٣٣٥٨.

ونصه : عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كَذبات ، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ، قوله (إني سقيم) الصافات : ٨٩، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) الأنبياء: ٦٣ ، وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة

فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعظم بذلك من خير كان في طيّ تلك البلية، وقد قيل :

كم نعمة مطوية **لك بين أثناء المصائب

وقال آخر :

رب مبغوض كريه **فيه لله لطائف

الخامسة عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر، فإن نمرود لو كان فقيرا سقيما، فاقد السمع والبصر، لما حاج إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال ﴿ أنا ربكم الأعلى﴾(1)، ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾(2)، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ (3) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{34} ﴾ (4) .

السادسة عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزل بالبرّ والفاجر ، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) (5) أي من جنات عدن ومساكنها الطيبة (6) .

النهي عن تمني الموت تخلصاً من المصائب :

وحين يعلم المؤمن أن صبره على المصائب والآلام مكفّر لسيئاته، ورافع لدرجاته، ويسجل له مع كل شعور بألم أجر عند الله تعالى، يناله ثوابا عظيما وكرامة عنده في دار الجزاء، يرى أنه في خير عظيم من الله تعالى، ويرى أن تمنيه الموت تخلصا من المصائب هروب من الحياة، وفراراً من مسئولية الابتلاء، لذلك فهو لا يتمنى الموت ليتخلص من مصائبه وآلامه، ويلاحظ المؤمن أن طول أجله فرصة له ليزيد من حسناته إن كان من المحسنين، وليتوب ويصلح من حاله إن كان من المسيئين، لكل ذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا عن تمني الموت.

من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال: أختي .... الحديث.

(1) سورة النازعات : آية ٢٤.

(2) سورة التوبة : آية ٧٤.

(3) سورة الشورى : آية ٢٧.

(4) سورة سبأ : آية ٣٤.

(5) سورة التوبة : آية ٧٢.

(6) نقلا عن محاسن التأويل ٣٢٩/٢ – ٣٣٦.

أخرج ـ البخاري ـ (1) ـــ بسنده ـ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [لن يُدخل أحداً عملُه الجنة " قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال " لا ، ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنيَنَّ أحدُكم الموت: إما محسناً فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب] (2) أي فهو أحد رجلين:

إما أن يكون محسناً، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يزداد إحساناً وأعمالا صالحة.

وإما أن يكون مسيئا، وفي هذه الحالة يرجو بطول الأجل أن يتوب ويستغفر ويعمل صالحا، ويكفر عن سيئاته.

وأخرج الإمام مسلم (3) ـ بسنده ـ عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات

---

(1) صحيح البخاري ـ كتاب المرضى ـ باب نهي تمني المريض الموت ٤/١٨١٦ رقم ٥٦٧١.

(2) يستعتب: أي يرجع عن الإساءة ويطلب الرضى بالتوبة والندم والاستغفار والعمل الصالح.

(3) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب كراهة تمني الموت لضر نزل به ٤/١٦٤٠ رقم ٢٦٨٢.

أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمرُه إلا خيرا] .

فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المؤمن لا يزيده طول عمره إلا خيرا، وأن عليه أن يواجه مسئولياته في الحياة بقوة إرادة وصدق عزيمة، وصبر وصمود ومجاهدة ، ليغتنم من حياته ما يستطيع اغتنامه لآخرته.

وأخرج البخاري (4) ـ بسنده ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لا يتمنينَّ أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لابد فاعلاً ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي] .

قال ابن حجر " قوله : لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه " الخطاب للصحابة، والمراد هم ومن بعدهم من المسلمين عموماً، وقوله (من ضر أصابه) حمله جماعة من السلف على الضر الدنيوي، فإن وجد الضر الأخروي بأن خشى فتنة في دينه لم يدخل في النهى، ويمكن أن يؤخذ ذلك من رواية ابن حبان

---

(4) صحيح البخاري ـ كتاب المرضى ـ باب نهي المريض الموت ٤/١٨١٦ رقم ٥٦٧١ ، صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٤/١٦٣٩ رقم ٢٦٨٠.

[لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا] (1) على أن (في) في هذا الحديث سببية ، أي بسبب أمر من الدنيا، وقد فعل ذلك جماعة من الصحابة، ففي الموطأ (2) عن عمر أنه قال [اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط] .

وقوله (فليقل ... الخ) وهذا يدل على أن النهى عن تمني الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة، لأن في التمني المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المحتوم وفي هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء " (3) .

وهذا الحديث يدل على أن الأفضل للمؤمن أن لا يتدخل في طلب الموت من ربه مطلقا، وأن يترك أمر الأجل لمقادير الله في خلقه، ولحكمته في عباده.

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ كتاب الرقاق ـ باب ما يدعو المرء عند الشدائد والضر إذا نزل به ٣/٢٤٣ رقم ٩٦٨ عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(2) الموطأ ـ كتاب الحدود ـ باب ما جاء في الرجم ٢/ ٢٣١.

(3) فتح الباري ـ كتاب المرضى ـ باب تمني المريض الموت ١٠/١٣٣.

ولذلك لم يدعُ خباب بن الأرت على نفسه بالموت، مع أنه وصل إلى حالة رأى فيها أن الموت أحب له من الحياة.

أخرج البخاري (4) ـ بسنده ـ عن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خباب نعوده، وقد اكتوى سبع كيات، فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعا إلا التراب (5) ، ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به .

قال ابن حجر " قوله (ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت له) الدعاء بالموت أخص من تمني الموت، وكل دعاء تمني من غير عكس، فلذلك أدخله في هذه الترجمة" (6) .

وقد حدّث خباب نفسه بالموت ولم يطلبه ، مخافة أن تنقص الدنيا والأموال التي زادت عنده من منزلته عن أصحابه الذين سبقوا إلى ربهم، قبل أن تفتح الدنيا على المسلمين .

---

(4) صحيح البخاري ـ كتاب المرضى ـ باب نهي تمني المريض الموت ٤/١٨١٦ رقم ٥٦٧٢

(5) قوله(وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعا إلا التراب) أي أصبنا من المال مالا نجد له موضعا نضعه فيه إلا أن نبني به ونعمر بيوتا ومساكن فتح الباري ١٠/١٣٤.

(6) فتح الباري ١٠/١٣٤.

من روائع أمثلة الصبر على البلاء:-

صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:-

يحكي الله لنا قصة بطولة فريدة من بطولات الصبر، قدّمها ولد ووالد في امتحان رباني عجيب لهما، هما النبيان الرسولان الصابران إسماعيل وأبوه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

يكلف الله إبراهيم في رؤيا منامية – ورؤيا الأنبياء حق وصدق – [1] أن يذبح ولده إسماعيل [2]، فيتجه بصبر عجيب لطاعة أمر ربه.

وكان هذا أشد المحن على إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ولده (إسماعيل) ولكنه كان مثالا للعبودية والطاعة، والإذعان لأوامر الله، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء، بل جعله أمة بمفرده، قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) [3]، ولا عجب أن نرى الثناء العظيم من الله تعالى عليه فهو أب الأنبياء، وإمام الأتقياء، ورمز الإيمان، ابتلى فصبر، وانتصر فشكر، فكان عبدا وفيا، ولذلك اختاره الله خليلا، قال تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) [4].

وفي عرض القرآن لهذه القصة إشادة بفضيلة خلق الصبر على تنفيذ أمر الله، مهما كان قاسيا ومكروها لدى النفس، وتوجيه لإعداد الأنفس للصبر على المكاره والمصائب المرتقبة، والإقدام عليها بشجاعة وبطولة، وتقديم لنموذج فريد من روائع قصص الأبطال الصابرين.

يقول الله تعالى في سورة (الصافات) في معرض ذكر قصة إبراهيم مع قومه ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ{98} وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ {99} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ {100} فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ {101} فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا

(1) في الحديث عن ابن عباس مرفوعا (رؤيا الأنبياء وحي) المستدرك – كتاب التفسير – تفسير الصافات ٤٣١/٢ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(2) قال ابن كثير " وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكى ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضا وليس ذلك في كتاب ولا سنة وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) تفسير القرآن العظيم ١٤/٤، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ١٥٨/١.

(3) سورة النحل: آية ١٢٠.

(4) سورة النساء: آية ١٢٥.

بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ {102} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ {103} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{104} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {105} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ {106} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ {107} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ {108} سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ{109} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{110}﴾ [1].

أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة وقالوا ابنوا له بنياناً واسعاً واملؤوه حطبا كثيرا، وأضرموا ناراً ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة.

والجحيم: النار الشديدة الوقود، وكل نار على نار وجمر فوق جمر فهو جحيم.

قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصاراً لأصنامهم وآلهتهم.

(فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها بردا وسلاما عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

ولما نجا إبراهيم عليه السلام ونصره الله على قومه وأيس من إيمانهم قرر الهجرة ومفارقتهم، كما قال تعالى (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين).

قالت فرقة: إن قول إبراهيم (إني ذاهب) كان بعد خروجه من النار، وإنه أشار بذهابه إلى هجرته من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود فخرج إلى الشام، ويروي إلى بلاد مصر، وقالت فرقة: قوله (إني ذاهب) ليس مراده به الهجرة، وإنما مراده لقاء الله بعد الاحتراق ولأنه ظن أن النار سيموت فيها، فقال هذه المقالة قبل أن يطرح في النار، فكأنه قال إني سائر بهذا العمل إلى ربي، وهو سيهديني إلى الجنة ..... والأول أظهر من نمط الآية بما بعده، لأن الهداية معه تترتب والدعاء في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الفناء [2].

قال الرازي: " دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، مع أن الله

(1) سورة الصافات: آية ٩٨ – ١١٠.

(2) انظر المحرر الوجيز ٤٨٠/٤.

سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى " (١) .

وفي أثناء الهجرة دعا ربه ، بأن يرزقه الولد، فقال (رب هب لي من الصالحين) وفي الكلام حذف ، أي هب لي ولداً صالحاً من الصالحين.

قال القرطبي : " لما عرّفه الله أنه مخلّصه دعا الله ليعضّده بولد يأنس به في غربته " (٢) .

وقال ابن كثير : " يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم " (٣) .

ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً فإن صلاح الأبناء قُرّة عين للآباء ، ومن صلاحهم برهم بوالديهم.

(فبشرناه بغلام حليم) الفاء في (فبشرناه) للتعقيب ، والبشارة : الإخبار بخبر وارد عن قرب أو على بعد، فإن كان الله بشر إبراهيم بأنه يولد له ولد أو يوجد له نسل عقب دعائه كما هو الظاهر، فالتعقيب على ظاهره، وإن كان الله بشره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي، أي بشرناه حين قدرنا ذلك أول بشارة بغلام فصار التعقيب آئلا إلى المبادرة كما يقال : تزوج فولد لـه ، وعلى الاحتمالين فالغلام الذي بشر به هو الولد الأول الذي ولد له وهو إسماعيل لا محالة (٤) .

وقد وصف الله إسماعيل بالحلم . فما الحلم ؟

إنه رزانة في العقل، ورجاحة في الرأى، وغزارة في العلم، وسعة في الصدر، والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل.

قال أبو السعود : " جمع الله له فيه بشارات ثلاث : بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنه يكون حليما، لأن الصغير لا يوصف بذلك ، وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) "(٥) .

وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو (إسماعيل) لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٤٣/٢٥/١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٢/١٥/٨ — ٧٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٤/٤.

(٤) انظر التحرير والتنوير ١٤٩/٢٣/١١.

(٥) إرشاد العقل السليم ١٩٩/٧.

وقال ابن كثير : " وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل في نص كتابهم إن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة أخرى بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهو تأويل وتحريف باطل....."(١) .

والفاء في قوله (فلما بلغ معه السعي...) فصيحة ، لأنها مفصحة عن مقدر، تقديره : فولد لـه ويفع وبلغ السعي. فلما بلغ السعي قال يا بني ... الخ، أي فلما كبر إسماعيل — عليه السلام — وترعرع وشبَّ وبلغ السن الذي يقدر فيه على السعي والعمل مع أبيه في أشغاله وحوائجه، وكان عمر إسماعيل — عليه السلام — يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وحينئذ حدث إبراهيم ابنه بما رآه في المنام (قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) .

وظاهر اللفظ أنه رأى في المنام أنه يذبحه ، ولكن معناه أني أرى في المنام أني قد أمرت بذبحك، بدليل ما جاء في سياق الآية (يا أبت افعل ما تؤمر).

قال ابن عباس : " رؤيا الأنبياء وحي" (٢) وتلا الآية.

وقال محمد بن كعب : كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظا ورقوداً ، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم. وهذا ثابت في الخبر المرفوع، قال صلى الله عليه وسلم [إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا] (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٤/٤.

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٩٨.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١٠١/١ وعزاه لابن سعد عن عطاء مرسلا وقال : صحيح. وأصل الحديث في الصحيحين في حديث الإسراء من رواية أنس بلفظ "..... وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم" . جزء من حديث الإسراء الذي رواه البخاري في كتاب بدء الخلق — باب ذكر الملائكة ٩٩١/٢ — ١٠٠٠ رقم ٣٢٠٧ ، وهو عند مسلم — كتاب الإيمان — باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات ١٣٣/١ رقم ١٦٤.

والفاء في قوله " فانظر ماذا ترى " فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى .

والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علقه الاستفهام عن العمل.

والمعنى : تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأموراً بذبح ابنه جبراً ، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين :

أحدهما : بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافراً [1].

وقال ابن كثير : " وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه " [2].

وقال الزمخشري : " فإن قلت : لم شاوره في أمر هو حتم من الله ؟ قلت: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقي البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله "[3].

وقال ابن عطية : " ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، ثم قال : ولعل الأمر في المنام دون اليقظة ، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال، أدل على كمال الانقياد والإخلاص "[4].

وقال الرازي : " الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يُطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا"[5].

---

(1) انظر التحرير والتنوير ١١/٢٣/١٥١.
(2) تفسير القرآن العظيم ١٥/٤.
(3) الكشاف ٣/٣٤٨.
(4) المحرر الوجيز ٤/٤٨١.
(5) مفاتيح الغيب ١٣/٢٥/٢٥٣.

فأجابه إسماعيل معلناً الطاعة قائلاً :

(قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) أي قال إسماعيل : امض لما أمرك الله من ذبحي ، وافعل ما أوحى إليك، سأصبر على القضاء الإلهي، وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وهذا مصداق وصفه السابق بالحليم، ومصداق ما أخبر الله عنه بقوله ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً{٥٤} وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً{٥٥}﴾[1].

قال الطاهر بن عاشور : " وفي قوله (من الصابرين) من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف بصابر، لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما وعد الخضر قال (ستجدني إن شاء الله صابراً) [2] لأنه حُمل على التصبر إجابة لمقترح الخضر"[3].

وعلق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

وبدأ تنفيذ أمر الله ، فقال تعالى (فلما أسلما وتله للجبين) أي فلما استسلما ـ الأب والابن ـ وانقادا لأمر الله وأطاعاه ، وفوضا أمرهما إلى الله، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه العاطفة فيتردد في الذبح، أو ألقاه على جنبه، فوقع جبينه (جانب الجبهة) على الأرض.

والجبين : أحد جانبي الجبهة، والجبهة : بين جبينين.

قال مجاهد وعكرمة والسدي وابن إسحاق وغيرهم ، ومعنى (تله للجبين) أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة(وتله للجبين) كبَّه على وجهه[4].

(وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) : أي لما أضجعه للذبح ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذت ما أُمرت به ، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. ومناداة الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بطريق الوحي بإرسال الملك، أسندت المناداة إلى الله تعالى لأنه الآمر بها.

---

(1) سورة مريم : آية ٥٤ ـ ٥٥.
(2) سورة الكهف : آية ٦٩.
(3) التحرير والتنوير ١١/٢٣/١٥٢.
(4) تفسير القرآن العظيم ١٥/٤.

وتصديق الرؤيا : تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل الذي رآه يقال : رؤيا صادقة إذا حصل بعدها في الواقع ما يماثل صورة ما رآه الرائي ، قال الله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) [1] ، وفي حديث عائشة [2] أم المؤمنين أنها قالت [أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .....] .

فمعنى (قد صدقت الرؤيا) قد فعلت مثل صورة ما رأيت في النوم أنك تفعله، وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر ولم يتأخر ولا سأل من الله نسخ ذلك .

والمراد : أنه صدق ما رآه إلى حد إمرار السكين على رقبة ابنه، فلما ناداه جبريل بأن لا يذبحه كان ذلك الخطاب نسخا لما في الرؤيا من إيقاع الذبح، وذلك جاء من قبل الله لا من تقصير إبراهيم ، فإبراهيم صدق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مثالها ، فأطلق على تصديقه أكثرها أنه صدقها، وجُعل ذبح الكبش تأويلا لذبح الولد الواقع في الرؤيا[3] .

قال الصاوي : " والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وقدّم محبته على محبة ولده " [4]

ثم عدد الله تعالى نعمه على إبراهيم بقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي مثلما جازيناك بالعفو عن الذبح، والتخلص من الشدة والمحنة، نجزي كل محسن على طاعته، ونثيبه على فعله.

(إن هذا لهو البلاء المبين) أي إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من غيره.

وفي هذا إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم في صدق الخلة لله .

(وفديناه بذبح عظيم) يظهر أنها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم، والمعنى : أي جعلنا له فداء ولده بتقديم كبش عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر.

(1) سورة الفتح : آية ٢٧.
(2) صحيح البخاري ــ كتاب بدء الوحى ٢٢/١ رقم ٣.
(3) انظر التحرير والتنوير ١٥٤/٢٣/١١.
(4) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٣ ، وانظر مفاتيح الغيب ٢٥٥/٢٥/١٣.

وأسند الفداء إلى الله لأنه الآذن به. فهو مجاز عقلي، فإن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه وإبراهيم هو الفادي بإذن الله، والابن إبراهيم مُفْدىً. والذبح بكسر الذال الشئ الذي يُذْبح [1] .

وأما قوله (عظيم) فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه، وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد إبراهيم [2] .

(وتركنا عليه في الآخرين) أي وأبقينا عليه ثناء حسناً إلى يوم الدين.

(سلام على إبراهيم) أي سلام منا على إبراهيم عاطرٌ كريم.

(كذلك نجزي المحسنين) أي مثل هذا الجزاء نجزي جميع المحسنين بالفرج بعد الشدة، وكرر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء الجميل.

ولم تؤكد جملة (كذلك نجزي المحسنين) بـ (إن) هنا، وأكدت مع ذكر نوح وفيما تقدم من ذكر إبراهيم، اكتفاء بذكره السابق عن ذكره هنا مرة ثانية.

قال الزمخشري : " لما تقدم في هذه القصة قوله (إنه كذلك نجزي المحسنين) وكان إبراهيم هو المجزىّ، اكتُفى بتأكيد نظيره عن تأكيده، أى لأنه بالتأكيد الأول حصل الاهتمام فلم يبق داع لإعادته"[3] .

هذه قصة من روائع قصص الإقدام على المكاره بصبر وشجاعة نادرة، ومن روائع قصص الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى، من الأمثلة التي تدل على خلق أصيل في النفس عظيم، وقد أثبت إسماعيل عليه السلام بالتطبيق العملي ما أعلنه بقوله(ستجدني إن شاء الله من الصابرين) فكان ذا حظ عظيم من الصبر، حينما سعى هو وأبوه لتنفيذ أمر الله .

والرائع في القصة أن الذابح المتدفق رحمة على ولده، والذبيح المستسلم لأعظم مكروه في الدنيا، كلاهما قد بلغا قمة الاستسلام والطاعة لربهما، فقد تل الأب ولده للجبين، وأسلما أمرهما لله صابرين على ما امتحنهما به، ولما أثبتا نجاحهما في الامتحان ــ وما كان الله قد أراد أن يذبح إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل فعلا ــ عندئذ أنزل لهما الفداء، وأعلن انتهاء فترة الامتحان، ورجع البطلان فائزين بدرجة عظمى من الاصطفاء الإلهي، ولم يكن صبر إبراهيم في الإقدام على ذبح ولده امتثالا لأمر ربه،

(1) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١١/٤.
(2) مفاتيح الغيب ٢٥٥/٢٥/١٣.
(3) الكشاف ٣٥١/٣.

بأقل من صبر إسماعيل في إقدامه مستسلما للذبح امتثالا لأمر ربه أيضا.

٢– صبر أيوب عليه السلام:

ومن روائع أمثلة الصبر صبر أيوب عليه السلام ، فقد قدم مثالا يقتدى به من أمثلة الصبر على المصائب والمكاره التي يبتلي الله بها عباده.

وقد كان أيوب عليه السلام من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين، وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء، فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد فكان عبداً تقياً ذاكراً شاكرا لأنعم الله عليه لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه، ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة ، فكان من الصابرين، وتلقى كل ذلك بالحمد والثناء على ربه، وبالتسليم والرضى ، فكان في حالتي السراء والضراء مثالاً رائعا لعباد الله الصالحين، إذ كان شاكراً أيام النعمة، ثم كان صابرا أيام المصائب المتوالية.

وقد ذكر بعضهم أموراً لا يجوز اعتقادها بالنسبة لبلاء (أيوب) عليه السلام، وهي منقولة عن إسرائيليات لم تصح، منها : أن أيوب حين اشتد به المرض وطال به البلاء عافه الجليس، وانقطع عنه الناس، وتعفن جسده حتى كان الدود يخرج منه، فأخرج من البلد وألقي على مزبلة خارجها، إلى غير ما هنالك من الحكايات المنقولة عن التوراة المحرفة أو هي من أقوال أهل الكتاب.

ولكننا نقف عند نصوص القرآن ولا نعدوها إلى غيرها إلا بالقدر الذي يعيننا على فهمها.

وقد ورد اسم أيوب عليه السلام في القرآن الكريم أربع مرات في سورة النساء، والأنعام، والأنبياء، وص [1].

١– قال الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ {٨٤} ﴾ [2].

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، حين دعا ربه بتضرع وخشوع

(أني مسني الضر) بفتح الهمزة (أني) على تقدير باء الجر ، أي نادى ربه بأني مسني الضر.

والمس : الإصابة الخفيفة، والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حل به من الضر كالمس الخفيف.

(١) انظر المعجم المفهرس ص ١٣٣.
(٢) سورة الأنبياء : آية ٨٣ – ٨٤.

والضر – بضم الضاد – ما يتضرر به المرء في جسده من مرض أو هزال، أو في ماله من نقص ونحوه.

وقد ذكر القرطبي [1] سبعة عشر قولا في بيان الضر الذي مس أيوب.

والحق الاقتصار على ظاهر النص القرآني، وهو أنه أصيب بضرر في نفسه وبدنه وأهله وماله، فصبر، ثم عافاه الله تعالى، وأعطاه خيرا مما فقد، وأثنى عليه بالصبر.

قال المفسرون : كان أيوب نبيا من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلّط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمر عليه ملأ من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره [2].

(وأنت أرحم الراحمين) أي أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب.

(فاستجبنا له) أي أجبنا دعاءه وتضرعه، والسين والتاء للمبالغة في الإجابة. (فكشفنا ما به من ضُرّ) أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء.

قال الطاهر بن عاشور : " والموصول في قوله تعالى (ما به من ضر) مقصود منه الإبهام، ثم تفسيره بـ (من) البيانية لقصد تهويل ذلك الضر لكثرة أنواعه بحيث يطول عدها، ومثله قوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) [3] إشارة إلى تكثيرها، ألا ترى إلى مقابلته ضدها بقوله (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) لإفادة أنهم يهرعون إلى الله في أقل ضر وينسون شكره على عظيم النعم، أي كشفنا ما حل به من ضر في جسده وماله فأعيدت صحته وثروته" [4].

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم) والإيتاء : الإعطاء، أي أعطيناه مثل أهله – وأهل الرجل أهل بيته وقرابته – وزيادة مثل آخر، بأن ولد له ضعف ما كان عنده من زوجته وزيد في شبابها.

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١١/٦ – ١٨٨.
(٢) انظر المحرر الوجيز ٩٤/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١١/٦ ، تفسير القرآن العظيم ١٨٨/٣، روح المعاني ٨٠/١٧ ، فتح القدير ٤٢٠/٣.
(٣) سورة النحل : آية ٥٣.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ١٢٧/١٧.

قال مجاهد وعكرمة : قيل لأيوب ـ عليه السلام ـ قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا. قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة، وأعطاه مثلهم في الدنيا. قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح (١).

(رحمة من عندنا) أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا.

قال الطاهر بن عاشور : " ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويها بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل، والمراد رحمة بأيوب إذ قال (وأنت أرحم الراحمين) " (٢).

(وذكرى للعابدين) أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، وليثابوا كما أثيب.

قال القرطبي : " أي وتذكيراً للعُبّاد، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر " (٣).

وقال الرازي : " وأما قوله تعالى (وذكرى للعابدين) ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب، وإنما خص العابدين بالذكرى لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك " (٤).

وأما مدة إقامته في البلاء ، ففيها روايات ، قال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام.

وابن وهب : ثلاثين سنة ،

الحسن : سبع سنين وستة أشهر.

وقال القرطبي : " وأصح من هذا والله أعلم ثماني عشرة سنة " (٥).

٢ـ وقال الله تعالى في سورة (ص) ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ {٤١} ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ {٤٢} وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ {٤٣} وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ {٤٤}﴾ (٦)

هذا مثل ثان ذُكر به النبي صلى الله عليه وسلم أسوة به في الصبر على أذى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٨/١١/٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٢٨/١٧/٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٩/١١/٦.
(٤) مفاتيح الغيب ١٨٧/٢١/١١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨٩/١١/٦.
(٦) سورة ص : آية ٤١ ـ ٤٤.

قومه والالتجاء إلى الله في كشف الضر، والإضافة للتشريف.

والمقصود من هذه القصص الاعتبار، كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في هذه الأحوال لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره.

والمعنى : واذكر أيها الرسول لقومك صبر أيوب على مرضه مدة طويلة، حين نادى ربه متضرعا إليه قائلا أني مسني الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد في بدني، وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة، وقد تقدمت قصته في آيات سورة الأنبياء.

وقد اختلف المفسرون في إسناد المس إلى الشيطان، فيرى بعضهم أن الإصابة بالآلام والأسقام حصلت بفعل الشيطان. ويرى آخرون أن المس من الله تعالى وإنما أسندت إلى الشيطان لأنه الموسوس بإلقاء الخواطر الفاسدة، وإسناد المس إلى الشيطان على هذا القول مجاز عقلي لعلاقة السببية المذكورة.

ويقول أصحاب الرأى الأول في توضيح رأيهم : أن إبليس سأل ربه، فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله : نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه، فقال : يا رب إنه قد امتنع على فسلطني على ماله وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا، فيقول الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله.

فقال : يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه.

فقال : يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنّها مائة جلدة. وعند هذه الواقعة قال (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاءه، وأوحى إليه أن (اركض برجلك)

فأظهر الله من تحت رجله عينا باردة طيبة فاغتسل منها، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه،ورد عليه أهله وماله[1].

وهذا القول باطل لا أصل له، وذلك للأسباب الآتية :

١- لأنه لو جوز على الشيطان أن يصيب أحدا بضر لكان في ذلك فتح باب لإيقاع الناس في الكفر والفتنة، فقد يعتقد البعض أن ما يصيبه من خير أو شر من الشيطان فيعبده من دون الله تعالى.

٢- لو كان الشيطان متمكنا من إيقاع الشر بالناس لأوقع ذلك بالأنبياء والأولياء وهدم عليهم دورهم وقتل أولادهم.

٣- أن الشيطان قد صرح بأنه لا سلطان له على العباد إلا بإيقاع الوساوس والخواطر الفاسدة ، يقول سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[2]، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة.

فتبين بهذه الأدلة أن معنى (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، فالشيطان بسبب إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة كان يوقعه في أنواع العذاب والعناء.

قال الرازي : " فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ قلنا : فإذا كان لابد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك؟

بل الحق أن المراد من قوله تعالى (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطلة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء "[3].

وقال الزمخشري : " فإن قلت : لم نسب المسّ إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه، ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسّه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه

(1) انظر مفاتيح الغيب ١٣/٢٦/٣٤٠ – ٣٤١.
(2) سورة إبراهيم : آية ٢٢.
(3) مفاتيح الغيب ١٣/٢٦/٣٤١.

إلا هو، وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى من أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو التوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل "[1].

وقال الطاهر بن عاشور : " وظاهر إسناد المس بالنُّصب والعذاب إلى الشيطان، أن الشيطان مسّ أيوب بهما، أي أصابه بهما حقيقة مع أن النصب والعذاب هما الماسان أيوب، ففي سورة الأنبياء (أني مسني الضر)[2] فأسند المسّ إلى الضر، والضر هو النصب والعذاب، وترددت أفهام المفسرين في معنى إسناد المسّ بالنُّصب والعذاب إلى الشيطان، فإن الشيطان لا تأثير له في بني آدم بغير الوسوسة ، كما هو مقرر من مكرر آيات القرآن وليس النُّصب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها.

وتأولوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة وفي أكثرها سماجة وكلها مبني على حملهم الباء في قوله (بنصب) على أنها باء التعدية لتعدية فعل (مسني) أو باء الآلة مثل ضربه بالعصا، أو يؤول النُّصب والعذاب إلى معنى المفعول الثاني من باب أعطى.

والوجه عندي : أن تحمل الباء على معنى السببية بجعل النُّصب والعذاب مسببين لمس الشيطان إياه، أي مسني بوسواس سببه نُصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النُّصب والعذاب عنده ويلقي إليه أنه لم يكن مستحقا لذلك العذاب ليلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك، أو تحمل الباء على المصاحبة، أي مسني بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب، ففي قول أيوب (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النُّصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ {٣٣} ﴾[3] "[4].

وقال ابن العربي القاضي أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين، الأولى قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر) الأنبياء : ٨٣ ، و

(1) الكشاف ٣/٣٧٦، محاسن التأويل ١٤/٥١٠٧.
(2) سورة الأنبياء : آية ٨٣.
(3) سورة يوسف : آية ٣٣.
(4) التحرير والتنوير ١١/٢٣/٢٦٩ – ٢٧٠.

الثانية في (ص) (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله [بينا أيوب يغتسل عريانا فخرّ عليه جراد من ذهب.........] الحديث [1] ، وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا، وفي الصحيح [2] واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال : [يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضا لم يُشَب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب، فقالوا (هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) [3] ، ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم] [4] .

وجملة (اركض برجلك) الخ مقولة لقول محذوف، والقول المحذوف معطوف على نادى، أي فقلنا له بعد أن استجبنا دعوته اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماء صافية.

والركض : الضرب في الأرض بالرجل [5] ، فقوله (برجلك) زيادة في بيان معنى الفعل مثل (ولا طائر يطير بجناحيه) [6] ، وقد سمى الله ذلك استجابة في سورة الأنبياء ، إذ قال (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) [7] .

(هذا مغتسل بارد وشراب) أي وقلنا له هذا ماء تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده.

قال أبو حيان : " (هذا مغتسل) أي ما يغتسل به (وشراب) أي ما

---

(1) صحيح البخاري ـ كتاب الغسل ـ باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة ومن تستر فالتستر أفضل ١٠٨٠٩ رقم ٢٧٩ ، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(2) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم [لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ] ٢٢٩٦/٥ رقم ٧٣٦٣.

(3) سورة البقرة : آية ٧٩.

(4) الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/١٥/٨.

(5) لسان العرب ١٧١٨/٣ مادة ركض.

(6) سورة الأنعام : آية ٣٨.

(7) سورة الأنبياء : آية ٨٤.

يشرب منه ، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأخرى فشفي " [1] .

وظاهر النظم القرآني عدم التعدد، فحين ضرب برجله الأرض امتثالا لأمر الله نبعت عين ماء واحدة فاغتسل منها وشرب.

وكما تم الشفاء من المرض أعاد الله له أهله وولده وماله، فقد كان ذا مال جزيل وأولاد كثيرين وسعة من الدنيا، فقال تعالى(ووهبنا له أهله ومثلهم معهم) أي منحناه أهله وضاعفناهم، إما أن الله تعالى أحياهم بعد أن أماتهم.، والله قادر على كل شئ، وإما أنه تعالى جمعهم له بعد تفرقهم، وأكثر نسلهم، وزادهم، فكانوا مثلي ما كانوا قبل ابتلائه.

قال الرازي : " الأقرب أن الله متعه بصحته وبماله وقوّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا"[2] .

وقال قتادة : " أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم" [3] .

والأحسن أن يقال : ووهبنا له أهله بأن شفيناهم من أمراضهم وجمعناهم بعد تفرقهم فكأنهم بذلك وهبوا له، ومثلهم معهم بأن رزقه الله من زوجته بعد الشفاء مثل من وهبوا له .

(رحمة منا) : أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم.

(وذكرى لأولى الألباب) أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة.

قال ابن كثير : " أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة " [4] .

ثم ذكر الله تعالى له رخصة في التحلل من يمينه ، فقال (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) أي وخذ بيدك حزمة صغيرة من حشيش ، أو قضبان، أو نحوهما ، فاضرب بها زوجتك، وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط على أمر طوى القرآن ذكره، فأنزل الله عليه ما يتحلل به من يمينه، فقال له (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث).

في هذه الآية دلالة على أن للزوج أن يضرب امرأته تأديبا، بدليل حلف أيوب على ضرب امرأته.

---

(1) البحر المحيط ٤٠٧/٧.

(2) مفاتيح الغيب ٣٤٤/٢٦/١٣.

(3) تفسير القرآن العظيم ٤٠/٤.

(4) المرجع السابق والجزء والصفحة.

والضرب بالضغث رخصة من الله تعالى لأيوب عليه السلام تحلة اليمين، جزاء على تلك الخدمة الطويلة التي قدمتها له زوجته أثناء مرضه.

ثم أثنى الله سبحانه على أيوب عليه السلام قائلا (إنا وجدناه صابرا) أي لقد وجدناه صابرا على البلاء الذي ابتليناه به في جسده، وذهاب ماله وأهله وولده، ولا يخل بذلك شكواه إلى الله تعالى من مس الشيطان، لأن ذلك يشبه تمني العافية وطلب الشفاء، وهذا مندوب إليه ولا يعتبر جزعا، فضلا عن أنه قاله خيفة أن يفتنه الشيطان في دينه.

قال الرازي : " فإن قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه والجواب من وجوه :

الأول : أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد.

الثاني : أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئا فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع.

الثالث : أن الشيطان عدو، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر" [1].

(نعم العبد إنه أواب) أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة، زيادة في حسناته ورفع درجته، لا بسبب ذنب جناه.

من خلال قصة أيوب – عليه السلام – نلاحظ أنه اجتاز مرحلة صبر طويل شديد، ولذلك أثنى الله عليه بقوله (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) أي رجاع إلى ربه تواب.

ويعرض الله لنا أمثلة الصابرين ليكونوا لنا أسوة حسنة نقتدي بهم، فنصبر مثل صبرهم، أو مثل بعض صبرهم، كلما اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلينا بشئ من مصائب الحياة الدنيا، في الأنفس، أو في الأجساد، أو في الأموال، أو في الثمرات ، حتى يكون لنا عنده أجر الصابرين ، ونرتقي عنده إلى منازل المحسنين المقربين العابدين أولى الألباب.

ولذلك قال الله تعالى بعد عرض قصة أيوب في سورة (الأنبياء) (وذكرى للعابدين) ، وقال بعد عرضها في سورة (ص) (وذكرى لأولي الألباب) فدل بذلك على أن الغرض من عرضها أن يكون أيوب في صبره أسوة حسنة لأولي الألباب ، الذين هم العابدون، فأولوا الألباب العارفون بثمرات الصبر وأجر الصابرين هم الذين ينتفعون بما يُعرض

[1] مفاتيح الغيب ٣٤٥/٢٦/١٣.

عليهم من أمثلة الصابرين، ويدركون أن الصبر من الدرجات العليا للعبادة، فيضيفونه إلى عباداتهم الكثيرة، التي يؤدونها ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال الطاهر بن عاشور : " فأما قوله هنا (وذكرى لأولي الألباب) فإن الذكرى التذكير بما خفي أو بما يخفى وأولوا الألباب هم أهل العقول، أي تذكرة لأهل النظر والاستدلال ، فإن في قصة أيوب مجملها ومفصلها ما إذا سمعه العقلاء المعتبرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلوا على أن صبره قدوة لكل من هو في حرج أن ينتظر الفرج، فلما كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مسوقة للاعتبار بعواقب الصابرين وكان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها من قوله ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ {١٧} ﴾ [1] حُقَ أن يشار إليهم (بأولي الألباب).

وأما الذي في سورة (الأنبياء) فإنه جئ به شاهداً على أن النبوءة لا تنافي البشرية، وأن الأنبياء تعتريهم من الأحداث ما يعتري البشر مما لا ينقص منهم في نظر العقل والحكمة وأنهم إنما يقومون بأمر الله ، ابتداءً من قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [2] وأنهم معرضون لأذى الناس مما لا يخل بحرمتهم الحقيقية وأقصى ذلك الموت، من قوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ {٣٤} ﴾ [3] " [4].

ولما كانت درجات الصبر العليا من مرتبة الإحسان، التي هي أعلى مراتب العبادة، قال الله تعالى بعد عرض قصة إبراهيم – عليه السلام – وما كان منه من صبر على البلاء المبين (إنا كذلك نجزي المحسنين) [5] وقال (كذلك نجزي المحسنين) [6].

الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع إيجابي أو سلبي

حين نتأمل في المجالات التي تحتاج إلى صبر في حياة الإنسان ، يتبين لنا أن الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع، إيجابيّاً كان أو سلبيّاً.

إن كسب الرزق يحتاج إلى صبر، ومعاملة الناس تحتاج إلى صبر، والقيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر، والكفّ

[1] سورة ص : آية ١٧.

[2] سورة الأنبياء : آية ٧.

[3] سورة الأنبياء : آية ٣٤.

[4] التحرير والتنوير ٢٧٢/٢٣/١١.

[5] سورة الصافات : آية ١٠٥.

[6] سورة الصافات : آية ١١٠.

عن المحرّمات والمكروهات يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر، وهكذا إلى سائر الأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته، سلبية كانت أو إيجابية، فهي تحتاج إلى صبر.

يشهد لهذا واقع حال الإنسان مهما اختلفت ظروف حياته، وتدل عليه أيضا النصوص القرآنية.

١ـ فمن الأدلة التي تدل على أن القيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر، قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا {٦٤} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا {٦٥} ﴾[1].

في هذا النص القرآني ، نلاحظ أن الله تبارك وتعالى حين أمر بعبادته أرشد إلى الاعتصام بالصبر الزائد، فقال تعالى (واصطبر لعبادته).

وصيغة (اصطبر) مأخوذة من (اصبر) مع زيادة التاء التي تدل على التكلف والمبالغة، ثم قلبت التاء طاء لوقوعها بعد حرف الصاد، كما هي القاعدة العربية في مثل ذلك، أي لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحي عنك، بل اشتغل بما أمرت به.

(١) سورة مريم : آية ٦٤ ـ ٦٥.

قال القرطبي : " وأصل (اصطبر) اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأبدل من التاء طاء، كما تقول من الصوم : اصطام "[2].

وقال أبو حيان : " وعدي فاصطبر باللام على سبيل التضمين، أي أثبت بالصبر لعبادته لأن العبادة تورد شدائد فأثبت لها وأصله التعدية بعلى كقوله تعالى (واصطبر عليها)[3] "[4].

وقال الطاهر بن عاشور : " والاصطبار : شدة الصبر على الأمر الشاق، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل، وكان الشأن أن يعدي الاصطبار بحرف (على) كما قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[5] ، ولكنه عدى هنا باللام لتضمينه معنى الثبات، أي أثبت للعبادة، لأن العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء [هي أثقل صلاة على

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٥/١١/٦.
(٣) سورة طه : آية ١٣٢.
(٤) البحر المحيط ٢٠٤/٦ ، وانظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٦١٦/٧.
(٥) سورة طه : آية ١٣٢.

المنافقين"[1] فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمّة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدى الفعل باللام كما يقال : أثبت لعُداتك"[2] .

ولما كانت عبادة الله تشمل فعل ما أمر به أو رغب بفعله، وترك ما نهى عن فعله أو رغب بتركه، وكانت العبادة تحتاج إلى اصطبار، كان المقصود بالصبر المطلوب الصبر على فعل الطاعات، والصبر على ترك المخالفات، سواء أكانت محرمات أو مكروهات أو دون ذلك.

٢ـ ومن الأدلة التي تدل على أن مخالطة الناس والتعامل معهم من الأمور التي تحتاج إلى صبر، قول الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا {٢٠} ﴾[3].

فهذه الآية تدل على أن من ضمن مجالات الامتحان الرباني للناس، امتحان

(١) صحيح البخاري ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب : ذكر العشاء والعتمة ومن رآه واسعا ١٨٦/١ عن أبي هريرة تعليقا ، كتاب الأذان ـ باب فضل العشاء في الجماعة ٢٠٨/١ رقم ٦٥٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) التحرير والتنوير ١٤٢/١٦/٨ ـ ١٤٣.
(٣) سورة الفرقان : آية ٢٠.

بعضهم ببعض، والنجاح في هذا الامتحان يحتاج إلى صبر، ولذلك قال الله تعالى (أتصبرون) أي : أتصبرون حتى تظفروا بالنجاح في الامتحان الرباني لكم.

وهذا الخطاب عام لجميع الناس بقرينة السياق، والحقيقة أن كون البعض فتنة للبعض الآخر يشمل العديد من الميادين، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغني، والعالم فتنة للجاهل، والذكي فتنة للغبي، والرسول الكريم فتنة لقومه الكافرين الذين يحسدونه على فضل الله تعالى ويحرصون على أن ينالوا من شخصه الكريم وهكذا . وقيل المراد بالبعض الأول كفار الأمم،وبالبعض الثاني الرسل[4].

وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاصي بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ومن دونهم قد أسلموا قبلهم فقالوا أنسلم ونكون مثل هؤلاء[5].

(٤) انظر فتح القدير ٦٨/٤ ـ ٦٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٣/٧، تفسير القرآن العظيم ٣١٣/٣. السراج المنير ٦٥٥/٢.

والأظهر عموم الخطاب لأن كل واحد من الناس مبتلى بالآخر، ولا وجه لقصر الآية على سبب النزول المذكور عن مقاتل، فإن هؤلاء وإن كانوا سبب النزول، إلا أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الطاهر بن عاشور : " فضمير الخطاب في قوله (بعضكم) يعم جميع الناس بقرينة السياق ، وكلا البعضين مبهم يبينه المقام، وحال الفتنة في كلا البعضين مختلف، فبعضها فتنة في العقيدة، وبعضها فتنة في الأمن، وبعضها فتنة في الأبدان [1].

والاستفهام في قوله تعالى (أتصبرون) للتقرير ، وفي الكلام حذف تقديره أم لا تصبرون، أي أتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة والابتلاء والاختبار فتنالوا من الله – تعالى – الأجر، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم.

أو هو استفهام مستعمل في الحث والأمر، كقوله (فهل أنتم منتهون) [2] أي انتهوا، وقوله تعالى (فهل أنتم مسلمون) [3] ، وقوله (أأسلمتم) [4] أي أسلموا.

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله (وكان ربك بصيرا) أي وكان ربك – أيها الرسول الكريم – بصيرا بمن يجزع، وبمن يصبر على ما امتحن به من المحن، ويجازي كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب، فاصبر على أذى قومك، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين ، فاستعمال ضمير المخاطب الذي يعود بالدرجة الأولى إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم، دليل على أنه عليه الصلاة والسلام هو المقصود أولا، على الرغم من أنه يصح أن يفهم كل مسلم أن الخطاب موجه إليه.

قال الطاهر بن عاشور : " وموقع (وكان ربك بصيرا) موقع الحث على الصبر المأمور به، أي هو عليم بالصابرين، وإيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم" [5].

ونستطيع أن نستخلص من هذا قاعدة عامة فنقول : إن جميع صور الامتحان الرباني للناس تحتاج إلى صبر، والله تبارك وتعالى يمتحن في التكاليف التي يأمرنا بها خضوعنا لأمره ونهيه، ومدى صبرنا على طاعته، في فعل ما يأمرنا به، وفي اجتناب ما ينهانا عنه.

(١) التحرير والتنوير ٣٤٤/١٨/٩.
(٢) سورة المائدة : آية ٩١.
(٣) سورة الأنبياء : آية ١٠٨.
(٤) سورة آل عمران : آية ٢٠.
(٥) التحرير والتنوير ٣٤٥/١٨/٩.

٣ – ومن الأدلة التي تدل على أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر عظيم لما فيه من تعرض للتضحية بالنفس والجود بها ابتغاء مرضاة الله ، قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٢٠٠} ﴾ [1]، ففي هذه الآية يأمر الله الذين آمنوا بالصبر، ويأمرهم بالمصابرة، والمصابرة فيها مغالبة للخصوم بالصبر، فإذا صبر العدو في قتال المؤمنين، فعلى المؤمنين أن يغالبوه بالصبر، فيصبروا أكثر منه، حتى يكسروا بصبرهم صلابة صبره.

قال الرازي : " ختم – تعالى – هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان : منها ما يتعلق به وحده، ومنها ما يكون مشتركا بينه وبين غيره، أما القسم الأول فلابد فيه من الصبر، وأما القسم الثاني فلابد فيه من المصابرة.

أما الصبر فيندرج تحته أنواع :

أولها : أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين.

ثانيها : أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات.

ثالثها : أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات.

رابعها : الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها من المرض والفقر والقحط والخوف، فقوله تعالى (اصبروا) يدخل تحته هذه الأقسام.

وأما المصابرة فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بينه وبين الغير، ويدخل فيه تحمل الأخلاق الردية من أهل البيت والجيران والأقارب، ويدخل فيه ترك الانتقام ممن أساء إليك كما قال تعالى (وأعرض عن الجاهلين) [2] ، وقال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) [3] ، ويدخل فيه الإيثار على الغير ، كما قال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [4] ، ويدخل فيه العفو عمن ظلمك كما قال تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) [5] ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المقدم عليه ربما وصل إليه بسببه ضرر، ويدخل فيه الجهاد فإنه تعريض النفس للهلاك، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين، وحل

(١) سورة آل عمران : آية ٢٠٠.
(٢) سورة الأعراف : آية ١٩٩.
(٣) سورة الفرقان : آية ٧٢.
(٤) سورة الحشر : آية ٩.
(٥) سورة البقرة : آية ٢٣٧.

شكوكهم ، والجواب عن شبههم، والاحتيال في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم، فثبت أن قوله تعالى (اصبروا) تناول كل ما تعلق به وحده (وصابروا) تناول كل ما كان مشتركا بينه وبين غيره" (١) .

وأما قوله تعالى (ورابطوا) ففيه قولان :

القول الأول : أنه عبارة عن أن يربط هؤلاء خيلهم في الثغور (٢) ويربط أولئك خيلهم أيضا، بحيث يكون كل واحد من الخصمين مستعدا لقتال الآخر، قال تعالى﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٣).

القول الثاني : أن معنى المرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة. والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما.

وجاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاري (٤) ــ بسنده ــ عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها] .

وفي صحيح مسلم (٥) : عن سليمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجرِيَ عليه رزقُه وأَمِنَ الفتّان] .

وروى أبو داود (٦) عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمَّن من فتّان القبر] .

ومن الأدلة أيضا في هذا المجال، قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ {٤٥} وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ

(١) مفاتيح الغيب ٦٤٢/٨/٤ ــ ٦٤٣.

(٢) الثغور : جمع ثغر، والثغر : الموضع الذي يُخاف هجوم العدو منه لسان العرب ٤٨٧/١، المعجم الوسيط ٩٧/١.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٠.

(٤) صحيح البخاري ــ كتاب الجهاد والسير ــ باب : فضل رباط يوم في سبيل الله ٨٩٢/٢ رقم ٢٨٩٢.

(٥) صحيح مسلم ــ كتاب الإمارة ــ باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل ١٢٠٧/٣ رقم ١٩١٣.

(٦) سنن أبي داود ــ كتاب الجهاد ــ باب في فضل الرباط ٩/٣/٢ رقم ٢٥٠٠.

رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {٤٦} ﴾ (١) .

ففي هذا النص القرآني يأمر الله الذين آمنوا بأن يثبتوا ويصبروا إذا لقوا عدوهم في معركة من معارك القتال، ففي الثبات والصبر مع سلامة الغاية، وطاعة الله ورسوله، والاشتغال بذكر الله، ووحدة الصف والقيادة، تحقيق الشروط المادية التي منها إعداد المستطاع من القوة، يتحقق النصر المرغوب، لأن الله عندئذ يكون مع المؤمنين مؤيداً وناصراً، ولا يكلهم إلى أنفسهم، دل على ذلك (واصبروا إن الله مع الصابرين).

قال ابن كثير : " وقد كان الصحابة رضى الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولا يكون لأحد ممن بعدهم فإنهم ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرض الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرهم إنه كريم تواب " (٢) .

وثبت في الصحيحين (٣) عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقى فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم.

٤ــ وكظم الغيظ، وإخماد الغضب، والدفع بالتي هي أحسن، أمور تحتاج إلى حظ عظيم من خلق الصبر، فالذي لا يتحلى بخلق الصبر لا يستطيع

(١) سورة الأنفال : آية ٤٥ ــ ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣١٦/٢.

(٣) صحيح البخاري ــ كتاب الجهاد ــ باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ٩١٢/٢ رقم ٢٩٦٥ ، صحيح مسلم ــ كتاب الجهاد ــ باب كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ١٠٩٦/٣ رقم ١٧٤٢ عن سالم أبي النضر.

أن يكظم غيظه، ولا يستطيع أن يسكن غضبه، ولا يستطيع أن يدفع بالتي هي أحسن، ومن الأدلة القرآنية على ذلك، قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{٣٤} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{٣٥} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٣٦} ﴾[1].

فالله تبارك وتعالى يأمر في هذا النص بدفع السيئة بالتي هي أحسن، ثم يقول : (وما يلقاها إلا الذين صبروا) فدل بهذا على أن هذه الظاهرة من مكارم الأخلاق أثر من آثار خلق الصبر.

وفي هذا النص ذكر الله تعالى آداب الدعاة وتحسين العلاقة بين العباد بعضهم ببعض، فقال (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ...) أي لا تساوي بين الفعلة الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها، وبين الفعلة السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها، وادفع أيها الداعية من أساء إليك بالإحسان إليه، من الكلام الطيب ومقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، واحتمال المكروهات.

ثم أبان الله تعالى نتيجة الإحسان وأثره البعيد ، فقال (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) أي إنك إن فعلت ذلك وقابلت إساءتهم بالإحسان، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة.

أخرج ابن جرير الطبري [2] — بسنده — عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن) قال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم (كأنه ولي حميم).

ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها، ويؤتى القدرة على هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه، والصبر شاق على النفوس، وما يتقبلها ويحتملها

(1) سورة فصلت : آية ٣٤ — ٣٦.

(2) جامع البيان ١١/٢٤/٧٦.

إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، وذو حظ في الثواب والخير.

قال الزجاج :" أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام " [1].

ثم ذكر الله تعالى طريق علاج الوساوس والأهواء ونزغات الشيطان، فقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) أي إن وسوس إليك الشيطان، وحاول صرفك عن الدفع بالتي هي أحسن، وزين لك أن تقابل السيئة بمثلها، فاستعذ بالله من شره، والتجئ إلى الله لكفه عنك ورد كيده، فالله هو السميع لاستعاذتك منه، والتجائك إليه، العليم بوساوس الشيطان وبما يعزم عليه الإنسان وبصدق الطلب والرجاء.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يقول فيما رواه الترمذي [2] عن أبي سعيد الخدري : [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه].

وفي هذا النص إشارة إلى عامل من العوامل المحرضة على الغضب والانتقام مع وصف العلاج النفسي الناجع، أما العامل المحرض على الشر فهو نزغ الشيطان في داخل الأنفس، وأما علاجه فهو الاستعاذة بالله منه ومن نزغاته، قال الله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم).

ونظير الآية قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ{١٩٩} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٢٠٠} إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ{٢٠١} ﴾[3].

وفي فضيلة كظم الغيظ والدفع بالتي هي أحسن، حتى درجتي العفو والإحسان الرفيعتين، يقول الله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{١٣٣} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{١٣٤} ﴾[4].

(1) معاني القرآن ٤/٣٨٦.

(2) سنن الترمذي — كتاب المواقيت — باب ما يقول عند افتتاح الصلاة ١/١٥٣ رقم ٢٤٢.

(3) سورة الأعراف : آية ١٩٩ — ٢٠١.

(4) سورة آل عمران : آية ١٣٣ — ١٣٤.

فالمغفرة من الله والجنة التي أعدت للمتقين، يظفر بهما الذين ينفقون في السراء والضراء والذين يكظمون غيظهم، ويعفون عن الناس، يستحقون محبة الله هم لأنهم ارتقوا إلى مرتبة الإحسان فكانوا من المحسنين .

ولا يكظم غيظه إلا صابر، ولا يعفو عمن أساء إليه إلا صابر، فكظم الغيظ والعفو عن الناس من مظاهر خلق الصبر.

وفي فضيلة إمساك الغضب، وعدم الاندفاع مع نوازغه، ومقابلة إساءة المسئ بالعفو والمغفرة، يقول الله تعالى ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٣٦} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ {٣٧} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {٣٨} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ {٣٩} وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {٤٠} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ {٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ {٤٢} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {٤٣} ﴾ (١).

فوصف الله الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون بأنهم إذا ما غضبوا من أحد بسبب إساءة وجهت لهم، فإنهم يغفرون، ثم وجّه الله إلى العفو فقال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم ختم الله هذا النص بقوله (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) فدل هذا على أن إمساك الغضب وعدم الاندفاع مع نوازغه، من الظواهر السلوكية التي تعتمد على خلق الصبر.

فضل الصابرين عند الله

لما كان من أكبر عناصر الامتحان في هذه الحياة الدنيا، امتحان الناس بما يتطلب منهم مقادير مختلفة من الصبر، لتقدير مدى صبر كلٍّ منهم على الطاعات، وصبر كل منهم عن المخالفات، قال الله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ {٣١} ﴾ (٢).

والابتلاء : هو الامتحان والاختبار.

والمعنى : ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ونعاملكم معاملة المختبر حتى نعلم — علم ظهور وانكشاف —

(١) سورة الشورى : آية ٣٦ — ٤٣.

(٢) سورة محمد : آية ٣١.

فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد].

خلق الصبر من الأركان الأساسية التي يجب أن يتحلى بها الدعاة إلى الله

يجب أن يتحلى الدعاة إلى الله وإلى كل حق وخير وفضيلة بخلق الصبر، فكل حامل لواء دعوة لا يتحلى بخلق الصبر محكوم عليه بعدم النجاح في تأدية رسالته، هذه سنة ثابتة من السنن التي يعرفها كل الدعاة الناجحين. ولذلك كان الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين متحلين بخلق الصبر في دعوتهم، وفي أداء رسالتهم، وتاريخهم في دعواتهم يثبت هذه الصفة لهم، وأمر الله لهم بالصبر يؤكد ذلك.

صبر نوح على قومه :

وقد ضرب نوح عليه السلام مثلا فريدا في الصبر على قومه، إذ بلغ من صبره في دعوته لأجيال قومه أنه لبث يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ {١٤} فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ {١٥} ﴾ (١).

ذكر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قصة نوح تسلية له عما يلقاه من أذى المشركين، وليصبر كما صبروا ،

(١) سورة العنكبوت : آية ١٤ — ١٥

فقال (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) أي ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جل وعلا، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على الكفر والضلال.

قال أبو السعود : " والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام، وقد غلب على طوفان الماء " (١) .

(وهم ظالمون) : أي أخذهم وهم متلبسون بالظلم، أي الشرك ، وتكذيب الرسول ، تلبسا ثابتا لهم، وهذا تعريض للمشركين بأنهم سيأخذهم عذاب.

قال الرازي : "وفي قوله (وهم ظالمون) إشارة إلى لطيفة، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار علي الظلم، وهذا قال (وهم ظالمون) يعني أهلكهم وهم على ظلمهم " (٢) .

(فأنجيناه وأصحاب السفينة) أي فأنجينا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين.

(وجعلناها آية للعالمين) أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها.

فإن نوحا لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته، فلم يؤمن من قومه إلا قليل، قال تعالى ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً{٥} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{٦} ﴾ (٣)، وقال سبحانه ﴿ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً {٢١} ﴾ (٤) .

وخص نوحاً بالذكر، لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض، وقد امتلأت كفرا، وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقى نوح (٥) .

وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول نبي أرسل نوح (٦) .

وجاء في القرآن تفصيل لواقع صبره في دعوته لقومه، ويحكى الله دُعاءه لربه فيقول تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً {٥} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً {٦} وَإِنِّي كُلَّمَا

(١) إرشاد العقل السليم ٧/٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/٢٤/٣٦٠.

(٣) سورة نوح : آية ٥ – ٦.

(٤) سورة نوح : آية ٢١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧/١٣/٢٥٠.

(٦) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١/١١٣ وعزاه لابن عساكر عن أنس رضى الله عنه وقال : حديث حسن.

المجاهدين في سبيل الله. والصابرين على مشاق الجهاد، ونختبر أعمالكم حسنها وقبيحها.

قال الطاهر بن عاشور : " والبَلْو : الاختبار وتعرف حال الشئ، والمراد بالابتلاء الأمر والنهي في التكليف ، فإنه يظهر به المطيع والعاصي والكافر، وسُمي ذلك ابتلاء على وجه المجاز المرسل لأنه يلزمه الابتلاء وإن كان المقصود منه إقامة مصالح الناس ودفع الفساد عنهم لتنظيم أحوال حياتهم ثم ليترتب عليه مثال الحياة الأبدية في الآخرة، ولكن لما كان التكليف مبيّنا لأحوال نفوس الناس في الامتثال وممحصا لدعاويهم وكاشفا عن دخائلهم كان مشتملا على ما يشبه الابتلاء، وإلا فإن الله يعلم تفاصيل أحوالهم، ولكنها لا تظهر للعيان للناس إلا عند تلقي التكاليف فأشبهت الاختبار، فإطلاق اسم الابتلاء على التكليف مجاز مرسل وتسمية ما يلزم التكليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاءً استعارة، ففي قوله (ولنبلونكم) مجاز مرسل واستعارة.....وعلم الله الذي جعل علة للبلو هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المسمى علم الشهادة، لأن الله يعلم من سيُجاهد ومن يصبر من قَبْل أن يبلوهم ولكن ذلك علم غيب لأنه قبل حصول المعلوم في عالم الشهادة. والأحسن أن يكون(حتى نعلم) مستعملا في معنى حتى نظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة، فالعلم كناية عن إظهار الشئ المعلوم بقطع النظر عن كون إظهاره للغير "(١) .

وكلما كان الابتلاء شديدا كان الأجر عظيما، ففي الحديث عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة] (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : [إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط] (٣) .

ولما كان الصبر هو المطلوب في هذا الامتحان كان ذا مكانة عظيمة عند الله.

ومن أجل المكانة العظيمة عند الله لخلق الصبر أعلن الله تبارك وتعالى أنه

(١) التحرير والتنوير ١٢/٢٦/١٢٣ – ١٢٤.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب الصبر على البلاء ٤/ ٢٧ رقم ٢٥٠٧ ، عن أنس رضى الله عنه ، و قال أبو عيسى : هذا حديث حسن.

(٣) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب الصبر على البلاء ٤/٢٧ رقم ٢٥٠٨ ، عن أنس رضى الله عنه ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن.

يحب الصابرين، فقال تعالى (والله يحب الصابرين) [١].

أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله.

قال القرطبي : " يعني الصابرين على الجهاد " [٢].

وأنه تبارك وتعالى يمدهم بعونه وتأييده، فقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٣] ، ﴿ و اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٤] ، وقال تعالى ﴿ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {٤٦} ﴾ [٥] ، ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ {٦٦} ﴾ [٦] .

وهي معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية.

ويوفى الله الصابرين أجرهم بغير حساب، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧٩/٤/٢.

(٣) سورة البقرة : آية ١٥٣.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٤٩.

(٥) سورة الأنفال : آية ٤٦.

(٦) سورة الأنفال : آية ٦٦.

إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ {١٠} ﴾ [٧] .

أي إنما يوفيهم الله أجرهم في الجنة في مقابلة صبرهم على الهجرة وترك الأوطان بغير حساب، أي بغير كيل ولا وزن، وبما لا يقدر على حصره وحسبانه حاصر وحاسب.

وبين الرسول صلوات الله عليه فضل الصابرين على البلاء، وما لهم من أجر عظيم عند الله ، فمن ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية التالية :

١ـ روى البخاري [٨] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : [ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة].

أي : ثم احتسب أجره عند الله صابراً على قضائه وقدره.

٢ـ وروى البخاري [٩] عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون ؟ فأخبرها [أنه

---

(٧) سورة الزمر : آية ١٠.

(٨) صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب العمل الذي يبتغي به وجه الله ٢٠١٨/٤ رقم ٦٤٢٤.

(٩) صحيح البخاري ـ كتاب الأنبياء " بدون ترجمة " ١٠٨٠/٢ ـ ١٠٨١. عن عائشة رضى الله عنها.

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً {٧} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً {٨} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً {٩} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً {١٠} ﴾ [١] .

صبر إبراهيم عليه السلام:

وضرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ مثالا رائعا في الصبر، إذ تعرض من أجل دعوته لربّه للقذف في النار العظيمة، فصبر، ولم يجزع، ولم يشك، وأنجاه الله بآية كبرى. فقال الله للنار ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ {٦٩} ﴾ [٢] ، فكانت برداً وسلاماً عليه.

أي قال الله تعالى المتكفل بحفظ أنبيائه وعصمتهم من أذى الناس : يا نار كوني برداً ، وسلاماً على إبراهيم ، فكانت وسطا لا حامية ولا باردة.

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها [٣].

وقال أبو العالية: ولو لم يقل (بردا وسلاماً) لكان بردها أشد عليه من حرها [٤].

---

(١) سورة نوح : آية ٥ ـ ١٠.

(٢) سورة الأنبياء : آية ٦٩.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦٤١/٥.

أخرج البخاري [٥] ـ بسنده ـ عن ابن عباس أن إبراهيم لما ألقوه في النار قال ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [٦]، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {١٧٣} ﴾ [٧] .

صبر سائر المرسلين :.

وضرب موسى وعيسى وكثير من المرسلين أمثلة رائعة في الصبر، فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يقصروا فيما أمرهم الله به من التبليغ، وضرب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أروع أمثلة الصبر في دعوته قومه إلى سبيل ربه.

تكليف الدعاة بالصبر :.

أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، حتى يؤدي واجب التبليغ والهداية إلى سبيل الله أحسن أداء، فقال له ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

---

(٤) المرجع السابق والجزء والصفحة.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ....) الآية ١٣٨٤/٣ رقم٤٥٦٣.

(٦) سورة آل عمران : آية ١٧٣.

(٧) سورة آل عمران : آية ١٧٣.

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ {٣٥} ﴾ (١) .

والمعنى : فاصبر يا محمد على تكذيب قومك كصبر أولي الثبات والعزيمة من الرسل وأنت من جملتهم، ولا تستعجل يا محمد العذاب لهم، أي الكفار، فإنه واقع بهم لا محالة.

أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة رضى الله عنها قالت: ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما، ثم طوى، ثم ظل صائما ثم طوى، ثم ظل صائما، قال: يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله (٢) .

قال الرازي : " ويراد بـ (أولوا العزم) بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسماعيل على الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه (إنا لمدركون) (٣) قال (كلا إن معي ربي سيهدين) (٤) ، وداود بكى على زلته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها، وقال الله تعالى في آدم(ولم نجد له عزما)(٥) وفي يونس(ولا تكن كصاحب الحوت)(٦)"(٧) .

وقال الطاهر بن عاشور : " وهذه الآية اقتضت أن محمداً صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه ، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبّر صبْرَهم كان منهم لا محالة، وأعقب أمره بالصبر بنهيه عن الاستعجال للمشركين، أي الاستعجال لهم بالعذاب، أي لا تطلب منا تعجيله لهم وذلك لأن الاستعجال ينافي العزم، ولأن في تأخير العذاب تطويلا لمدة

(١) سورة الأحقاف : آية ٣٥.
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤٥٤/٧.
(٣) سورة الشعراء : آية ٦١.
(٤) سورة الشعراء : آية ٦٢.
(٥) سورة طه : آية ١١٥.
(٦) سورة القلم : آية ٤٨.
(٧) مفاتيح الغيب ٢٣٩/٢٧/١٤.

صبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب عزمه قوة " (١)

ومفعول (تستعجل) محذوف دل عليه المقام، تقديره : العذاب أو الهلاك.

ونظير (لا تستعجل لهم) قوله تعالى ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً {١١} ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً{١٧} ﴾ (٣)

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله، كما قال تعالى قال ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ {١١٢} قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ{١١٣} ﴾(٤)، وقال عز وجل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا {٤٦} ﴾ (٥) . ثم قال تعالى (بلاغ) أي هذا بلاغ، ونظيره قوله تعالى ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ (٦) ، وقال سبحانه ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ{١٠٦} ﴾ (٧) . والبلاغ : بمعنى التبليغ.

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله.

ففي هذه الآية يعظ الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يصبر في دعوته إلى سبيل ربه، كما صبر أولوا العزم من الرسل الذين سبقوه، صلوات الله عليهم أجمعين.

وكذلك كان الدعاة إلى الله مأمورين بالصبر، مهما نالهم من أقوامهم من أذىً ومتى انتهت الفترة الكافية للإصلاح دون أن تستجيب الأمم لدعاتها يأتي النصر الإلهي لأولياء الله على أولياء الشيطان، والله يمهل مهما اقتضت الحكمة الإمهال ، حتى إذا غدا الإمهال أمراً غير ذي فائدة ترجى فإن الله تبارك وتعالى لا يهمل، بل يأخذ بالعقاب العادل.

ويوجه الله الدعاة للتحلي بفضيلة خلق الصبر، فيقول لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

(١) التحرير والتنوير ٦٧/٢٦/١٢.
(٢) سورة المزمل : آية ١١.
(٣) سورة الطارق : آية ١٧.
(٤) سورة المؤمنون : آية ١١٢ – ١١٣.
(٥) سورة النازعات : آية ٤٦.
(٦) سورة إبراهيم : آية ٥٢.
(٧) سورة الأنبياء : آية ١٠٦.

بِالْمُهْتَدِينَ{١٢٥} وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ {١٢٦} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {١٢٧} إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ {١٢٨} ﴾ (١) .

أي ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته بالأسلوب الحكيم، واللطف واللين، بما يؤثر فيهم وينجع، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة (وجادلهم بالتي هي أحسن) أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين والرفق واللين، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٢) .

فهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلين الجانب ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (٣) ، فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين، فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم، وليس عليك هدايتهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي وإن عاقبتم المسيء أيها المؤمنون فعاقبوه بمثل جرمه، بلا زيادة ولا تجاوز للحدود (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل، وهذا ندب إلى الصبر، وترك عقوبة من أساء، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل.

قال الطاهر بن عاشور : "ورغبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه، لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{٣٤} ﴾ (٤) ، وقوله ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٥) ، وضمير

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ ــ ١٢٨.
(٢) سورة العنكبوت : آية ٤٦.
(٣) سورة طه : آية ٤٤.
(٤) سورة فصلت : آية ٣٤.
(٥) سورة الشورى : آية ٤٠.

الغائب عائد إلى الصبر المأخوذ من فعل (صبرتم) كما في قوله تعالى ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

وأكد كون الصبر خيرا ــ بلام القسم ــ زيادة في الحث عليه.

وعبر عنهم بالصابرين إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين، أي الصبر خير لجنس الصابرين"(٢).

ثم أمر الله نبيه صراحة بالصبر بصفة عامة بعد أن ذكر حسن عاقبته، فقال (واصبر وما صبرك إلا بالله) أي واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في سبيل الدعوة ، وما صبرك إلا بعون الله وحسن توفيقه ومشيئته .

(ولا تحزن عليهم) أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا .

(ولا تك في ضيق مما يمكرون) أي ولا يضيق صدرك بما يقولون من السفه والجهل، ولا بما يدبرون من المكر والكيد، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك، كما قال تعالى ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ به ﴾ (٣) ، وقال سبحانه (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل) (٤) .

(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي مع المتقين بمعونته ونصره، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

ففي هذا النص يأمر الله رسوله بأن يصبر في مجال دعوته إلى سبيل ربه فيقول له (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون).

ويُلحق بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كل داع إلى الله .

وبالصبر تتماسك المجتمعات، لأن الأفراد إذا كانوا موصوفين بالصبر كان المجتمع كله موصوفاً بالصبر، والصبر دواء لإصلاح المجتمع وأفراده.

قال تعالى مشيرا إلى ذلك﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {١٥٣} ﴾ (٥) .

" وأكثر أسقام البدن والقلب إنما تنشأ من عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله لكفى (إن الله مع الصابرين)، وهو خير لأهله،

(١) سورة المائدة : آية ٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٣٦/١٤/٧.
(٣) سورة الأعراف : آية ٢.
(٤) سورة هود : آية ١٢.
(٥) سورة البقرة : آية ١٥٣.

ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله لكفى (إن الله مع الصابرين)، وهو خير لأهله، وقال تعالى ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ {١٢٦}﴾ [1] "[2]

ويشير صلى الله عليه وسلم إلى أن الصبر طريق إلى الخير بقوله [من يرد الله به خيراً يصب منه] [3].

والمراد يصب منه، ويصبر على ذلك، وإلا فلو أصاب منه، ولم يصبر، بل سخط وجزع فإنه لا يصيب بذلك خيرا.

ويؤكد أثر الصبر في تكوين الفرد والمجتمع قول الغزالي :

" إن المرء محتاج إلى الصبر في كل حال، فهو يحتاج إليه في السراء، كما يحتاج إليه في الضراء، وهو إليه في السراء أحوج فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، والصبر على العافية، بأن يراعى الصابر حقوق الله في ماله بالإنفاق منه في سبيل الخير، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، والطاعة تحتاج إلى الصبر، لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية،وللصبر على الطاعة ثلاثة أحوال:

١- قبل الطاعة : وذلك بتصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء والعزم على الإخلاص والوفاء.

٢- وحالة العمل : حتى لا يفتر قبل الفراغ منه.

٣- وبعد العمل : إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به، والنظر إليه.

ويحتاج الإنسان إلى الصبر عن المعاصي، وعلى الأخص المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة لأن إضافة العادة إلى الشهوة وسهولة فعل المعصية مما يضاعف من حاجة الإنسان إلى الصبر"[4].

إلى هنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عن (الصبر في القرآن الكريم) وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه، وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(1) سورة النحل : آية ١٢٦.

(2) زاد المعاد في هدى خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم ٣/١٧٢ بتصرف يسير.

(3) صحيح البخاري — كتاب المرضى — باب ما جاء في كفارة المرض ٤/١٨٠٨ رقم ٥٦٤٥.

(4) الأخلاق عند الغزالي . للدكتور زكي مبارك ص ١٥٤.

أهم نتائج البحث

وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى العديد من النتائج، أهمها ما يأتي :

(١) الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عنى بها الكتاب العزيز.

(٢) الصبر السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من إصلاح خصمه أو الظفر به، وأنه أعظم خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا.

(٣) الصبر يورث صاحبه قوة في الدين.

(٤) أرشد الإسلام إلى التحلي بفضيلة خلق الصبر عند المصائب، وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار.

(٥) وعد الإسلام الصابرين بالأجر العظيم ، والثواب الجزيل، إذا صبروا رضىً بقضاء الله، وطاعة له، وابتغاء مرضاته.

(٦) بين الرسول صلوات الله عليه فضل الصابرين على البلاء، وما هم من أجر عظيم عند الله .

(٧) الإخبار عن أهل الصبر أنهم من أهل العزائم.

(٨) الإخبار بأن الفوز والجنة والنجاة إنما يكون بالصبر.

(٩) الصبر قوام الطاعات.

(١٠) من ثمرات الصبر إطلاق البشرى للصابرين، ومثوبتهم بصلوات من ربهم ورحمة، وقصر الاهتداء عليهم.

(١١) محبة الله تعالى لهم.

(١٢) معية الله للصابرين.

(١٣) إيجاب الجزاء لهم بأحسن من أعمالهم.

(١٤) حفظهم من كيد الأعداء.

(١٥) استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم.

(١٦) جعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين، وتمم كلمته الحسنى عليهم في الدين.

(١٧) المصائب مكفرات للذنوب.

(١٨) النهى عن تمني الموت تخلصا من المصائب.

(١٩) الصبر ضرورة حياتية لكل عمل نافع إيجابي أو سلبي.

(٢٠) مخالطة الناس والتعامل معهم من الأمور التي تحتاج إلى صبر.

(٢١) الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر عظيم، لما فيه من تعرض للتضحية بالنفس والجود بها ابتغاء مرضاة الله .

(٢٢) كظم الغيظ ، وإخماد الغضب، والدفع بالتي هي أحسن، أمور تحتاج إلى حظ عظيم من خلق الصبر.

(٢٣) أحق الناس بالتحلي بخلق الصبر من يتصدى للقيادة العامة، أو للإمامة الدينية، وذلك لكثرة ما يتعرض له من أمور تتطلب منه صبرا، فإذا لم يصبر فشل وسقط عن مرتبة القيادة أو الإمامة.

(٢٤) يجب أن يتحلى الدعاة إلى الله وإلى كل حق وخير وفضيلة بخلق الصبر، فكل حامل لواء دعوة لا يتحلى بخلق الصبر محكوم عليه بعدم النجاح في تأدية رسالته.

(٢٥) الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين متحلين بخلق الصبر في دعوتهم، وفي أداء رسالتهم، وتاريخهم في دعواتهم يثبت هذه الصفة لهم، وأمر الله لهم بالصبر يؤكد ذلك.

(٢٦) ضرب موسى وعيسى وكثير من المرسلين أمثلة رائعة في الصبر، فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يقصروا فيما أمرهم الله به من التبليغ، وضرب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أروع أمثلة الصبر في دعوته قومه إلى سبيل ربه.

(٢٧) الصبر سر نجاح الأفراد في واجباتهم ووصولهم إلى آمالهم وغاية كمالهم.

أهم المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي "ت ٥٠٥هـ"، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي "ت٨٠٦هـ"، الدار المصرية اللبنانية.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي " ت ٩٥١هـ "، الناشر مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة.

(٤) بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي " ت ٣٧٥هـ" تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، والدكتور زكريا عبد المجيد النوبي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٥) البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان " ت٧٥٤هـ" الناشر: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

(٦) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، محمد بن يعقوب

الفيروزابادي " ت ٨١٧هـ " تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

(٧) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور " ت ١٣٩١ هـ " ط : تونس.

(٨) تفسير القرآن العظيم للإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير " ت ٧٧٤هـ" دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٩) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

(١٠) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، " ت١٤٢١هـ" حققه وشرح غريبه ابن الخطيب، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية ومكتبتها.

(١١) جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري "ت٣١٠هـ" دار الكتب العلمية ، بيروت.

(١٢) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين السيوطي "ت٩١١هـ" دار الكتب العلمية ، بيروت.

(١٣) الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، " ت ٦٧١هـ" دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى.

(١٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي " ت ٧٥٦هـ" تحقيق الدكتور أحمد الخراط ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

(١٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي " ت ٩١١هـ " دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

(١٦) روح المعاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي "ت١٢٧٠هـ " دار إحياء التراث العربي ، بيروت، الطبعة الرابعة.

(١٧) زاد المعاد في هدى خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين ، للإمام ابن قيم الجوزية، المطبعة المصرية.

(١٨) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للشيخ الإمام الخطيب الشربيني.

(١٩) سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان السجستاني، "ت٢٧٥هـ" دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢٠) سنن ابن ماجه ، محمد ابن يزيد القزويني " ت ٥٧٥هـ" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢١) سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الحديث، القاهرة.

(٢٢) صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ — ١٩٩٣م، تحقيق شعيب الأرنؤوط .

(٢٣) صحيح البخاري ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري " ت٢٥٦هـ" المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.

(٢٤) صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، " ت ٢٦١هـ" دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى.

(٢٥) صحيح مسلم، بشرح النووي، دار الريان للتراث، القاهرة.

(٢٦) فتح الباري، بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني " ت ٨٥٢هـ" دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

(٢٧) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني " ت ١٢٥٠هـ" دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

(٢٨) الفتوحات الإلهية ، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل "ت١٢٠٤هـ" مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

(٢٩) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري " ت٥٣٨هـ" دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٣٠) لسان العرب ، لابن منظور " ت ٧١١هـ" الناشر دار المعارف، القاهرة.

(٣١) محاسن التأويل ، محمد بن جمال الدين القاسمي " ت١٣٣٢هـ" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت

(٣٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " ت٥٤٦هـ" تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣٣) مختار الصحاح، للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٩م.

(٣٤) مدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية.

(٣٥) مسند أحمد بن حنبل "ت٢٤١هـ" تحقيق الشيخ أحمد شاكر، مطبعة دار المعارف بمصر ١٣٦٦هـ.

(٣٦) المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة ، بيروت، لبنان.

(٣٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج " ت ٣١١هـ" تحقيق د/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

(٣٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(٣٩) المعجم الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية ، الطبعة الثانية، القاهرة.

(٤٠) مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي " ت ٦٠٤هـ" دار الغد العربي، القاهرة.

(٤١) المفردات في غريب القرآن ، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، " ت ٥٠٢هـ" تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة ١٩٦١م.

(٤٢) الموطأ ، لإمام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس، خرج أحاديثه علق عليه هاني الحاج ، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٤٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبد الرحمن بن الجوزي، "ت ٥٩٧هـ" تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

فهرس البحث

***